دراسة موجزة
في مادة التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية
سنة إولى تاريخ

ـ ١ ـ

الحياة السياسية

النظام القبلي وأثره في حالة التفكك السياسي

١ ـ القبيلة التنظيم السياسي في المجتمع الجاهلي :

تعتبر القبيلة الوحدة السياسية عند العرب في الجاهلية ، ذلك لأن القبيلة هي جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد تربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة ، ورابطة العصبية هي شعور التضامن بين من تربطهم رابطة الدم ، وهي مصدر القوة السياسية وتعادل في وقتنا الحاضر الشعور القومي .

والعصبية عند العرب نوعان : (١) عصبية الدم ، وهي أساس القرابة في البيت . (٢) عصبية الانتماء إلى أب بعيد أو جد مشترك .

لم تكن للمجتمع الجاهلي نزعة قومية شاملة ، لأن الوعي السياسي فيه كان ضيقاً محدوداً ، لا يتجاوز حدود القبيلة أو حدود القبائل المنتمية إلى الجد ، وهكذا كان المجتمع العربي في الجاهلية مجتمعاً مفتتاً من الناحية السياسية إذ أن الغصبية فيه قضت على فكرة الترابط السياسي ، حتى في حالة الانتساب إلى إحدى المجموعتين الكبيرتين : العدنانية والقحطانية ، مما أدى إلى قيام صراع بين هاتين العصبيتين ، وهو صراع كان من أثره إضعاف الدولة الأموية وسقوطها .

والقبيلة تنطبق عليها مقومات الدولة ، باستثناء الأرض الثابتة التي تحدد منطقة نفوذها ، فمن المعروف أن أهل الوبر لم تكن لهم أوطان ثابتة بسبب تنقلهم الدائمن وراء مصادر الماء والشعب. وبفضل العصبية أمكن لهذه القبائل أن تدافع عن كيانها ، ولذلك كانت حياة القبائل المتبدية صراعاً دائماً ، ولهذا أعتبر قانون البادية قانون الغاب ، وقوامه « الحق في جانب القوة » .

وكان النظام القبلي أيضاً دعامة الحياة السياسية في الممالك العربية والامارات التي قامت في جنوب جزيرة العرب ، وفي حواضر الحجاز وفي الإمارات العربية على تخوم الشام والعراق ، فلم تنصهر القبائل التي نزلت في هذه المدن والحواضر في شعب واحد ، كالشعب الروماني أو الشعب الفارسي ، وإنما ظلت تحتفظ بتنظيمها القبلي منسجمة فالفرد يلبي نداء قبيلته ثم إنه يقبل تحمل بعض مسؤولية أعمال غيره ، ولهذا فان روح الديموقراطية والمساواة كانت الأساس الذي يقوم عليه المجتمع القبلي ، وكان لكل قبيلة مجلس من شيوخها يرأسه شيخ يختارونه من بينهم ، وكانوا يشترطون في اختياره أن يكون من أشرف رجال القبيلة ، وأشدهم عصبية ، وأكثرهم مالاً ، وأكبرهم سناً ، وأعظمهم نفوذاً ، كانت القبيلة تعتز بكرامتها ، وقد يؤدي هجاء شاعر من الشعراء لشيخ من شيوخها أو لفرد منها إلى قيام الحرب وكان للشاعر لذلك شأن كبير في حياة القبيلة ، كذلك كان للخطباء أثر كبير في الدفاع عن القبيلة .

وإذا كان من حق شيخ القبيلة أن يكون حكمه نافذاً على جميع أفراد قبيلته إلى جانب امتيازاته الأخرى في المرباع (أي ربع

الغنيمة) ، والصفايا (أي مايصطفيه شيخ القبيلة من الغنائم قبل أن يجري القسمة) ، والحكم (أي إمارة الجند) ، والنشيطة ، (أي ما أصيب من المال قبل اللقاء) ، والفضول (ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة)، فقد كان من النادر أن يستبد في حكمه ولا يختلف الأمر عن ذلك كثيراً في المجتمعات الحضرية ، فمن المعروف أن مجتمع الحواضر كان ينقسم إلى قسمين :

١ ـ القبيل أو الجماعة ، وهم جمهور القبيلة وعامتها .

٢ ـ الملأ ، وهم علية القوم وأشراف القبيلة وكبار أعيانها .

المثل العربي في إيثار القوة والبغي واستطابة الموت في المعركة :

كان حب القتال مغروساً في نفوس العرب في الجاهلية ، حتى تحول إلى شغف بالسيطرة والغلبة عن طريق البغي والبطش والمبادرة بالعدوان ، ولا يمكن التوصل إلى الحق والسيطرة إلا عن هذا الظريق ، ويعبر عمرو بن كلثوم عن ذلك في قوله :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً
أبينا أن نقر الذل فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها
ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمينا وما ظلمنا
ولكنا سنبدأ ظالمينا

وفي سبيل التوصل إلى الحق استطاب العربي الموت في ساحة الوغي ، ويعبر عمرو بن يكرب عن هذا المعنى بقوله :

وقرب للنطاح الكبش يمشي وطاب الموت من شرع وورد

وقد ظلت هذه الروح الجاهلية مغروسة في قلب الجاهلي حتى جاء الإسلام فخمد أوارها بعض الشيء، ثم انبعثت في أقل من نصف قرن عندما تناعت العصبيتان المضرية واليمنية، وفي ذلك يقول قطري بن الفجاءة:

ولسنا كمن يبكي أخاه بعبرة
يعصرها من ماء مقتله عصراً
وإناء إناس ما تفيض دموعنا
على هالك وإن قصم الظهرا
ولكنني أشفي الفؤاد بغارة
ألهب في قطري كتائبها جمراً

ج ـ النظم الحربية في العصر الجاهلي:

لم يكن عند قبائل العرب المتبدية جيوش منظمة، ولكن جميع أفراد القبيلة شيوخاً وشباناً كان يلبون نداء القبيلة عندما يستنفرهم رئيسها، وكانت النساء يشاركن الرجال في الحرب، لبعث الحمية والحماسة في قلوب الرجال.

وأنشدت ابن القرين الشيبانية تحث قومها الاستبسال:

إيها بني شيبان صفاً بعد صف
أن تهزموا يصبغوا فينا القلف

وفي موقعه أحد اشتركت نساء قريش الوثنيات في المعركة، لتشجيع المشركين فخرج أبو سفيان بامرأتين: هند بنت عتبة، وأمية بنت سعد بن وهب ابن أشيم من كنانة. وخرج غراب بن سفيان بن عويف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقيمة، وهي التي رفعت لواء

قريش حين سقط من صواءب الحبشي غلام أبي طلحة بعد أن قطعت يداه .

وكانت هند بنت عتبة وصواحبها يحرضن ويذمرن الرجال ويقلن :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق

وفي معسكر المسلمين كانت النساء المسلمات وعلى رأسهن فاطمة بنت الرسول يحملن الطعام والشراب على ظهورهن، ويسقين الجرحى ويداوينهم ، أما الممالك والإمارات ، فقد كان إعتماد المملكة أو الإمارة على جيوش دائمة ، فكان لملك الحيرة كتيبتان إحداهما فارسية يقال لها الشهباء ، والثانية عربية تسمى دوسر . وعرف عرب الحيرة نظام الكراديس والكمائن عن الفرس .

كذلك عرف العرب نظام الميمنة والميسرة ، ففي موقعة أحد ، صف المشركون صفوفهم ، كذلك صف الرسول أصحابه ، وجعل جبل أحد خلفه مستقبلاً المدينة ، وعمل لنفسه ميمنة وميسرة .

وكان العرب يستخدمون العيون لترصد العدو ، كما حدث عندما أرسل امرىء القيس عيونه إلى بني أسد .

واستعمل العرب في حروبهم ١ ـ السيوف ، ومنها السيوف المشرفية ، ومنها السيوف الهندية أو المهندة ، وفيها يقول عنترة :

أقحمت مهري تحت ظل عجاجة
بسنان رمح ذابل ومهند

ومنها السيوف السريجية ومنها السيوف اليمنية ، التي يقول فيها عنترة :

بـأسمر من رماح الخط لدن
وأبيض صارم ذكر يمان

٢ ـ ومن آلاتهم **الرماح** ، وأجودها الآزنية أو اليزنية نسبة إلى ذي يزن، والرماح الخطية، نسبة إلى خط وهو موضوع بالبحرين، ومنها أيضاً الرماح الردينية نسبة إلى إمرأة تدعى ردينة ، ومنها السمهرية ، نسبة إلى زوج ردينة .

٣ ـ ومن آلاتهم **القسى والسهام** وأجودها العصفورية والماسخية والكنانة هي حافظة النبال ، والنبال هي سهام مريشة ذات نصال .

٤ ـ ومن الآلات الحربية **الدرع** ، ومن الدروع : الفرعونية ، والحطمية والسلوقية .

٥ ـ ومنها **البيضة أو المغفر** ، وهي الخوذة توضع على الرأس .

٦ ـ ومنها **المجن** ، وهو الترس أو الدرق .

٧ ـ ومن آلاتهم أيضاً **المنجنيق والعرادة** ، وهما آلتان لرمي الحجارة .

وكان الأسري يساقون بعد المعركة مصفدين بالأغلال ، ويعبر عن ذلك عمر ابن كلثوم إذ يقول :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبناء بالملوك مصفدينا

ويستخدم الأسرى عبيداً إلى أن يفتديهم أهلوهم بمال ، وقد يتعرض الأسرى للقتل كما فعل المنذر بن أمرىء القيس ملك الحيرة

بأسرى بني حجر بن عمرو ، وقد يكتفي بجز ناصية الأسير ويحتفظ الغالب بناصية الأسير رمزاً لانتصاره وكان العرب ، في بعض الأحيان ، إذا أسروا شاعراً ربطوا لسانه بنسعة حتى لا يهجوهم إذ كان الهجاء في الجاهلية أخف وقعاً على الأعداء من وقع الرماح.

ويقول عبد يغوث بن وقاص الحارثي :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة
أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا

أما السبايا من النساء ، فكن يتخذن زوجات أو أمهات ولد .

وإذا قتل رجل من قبيلة رجلاً من قبيلة أخرى ، كان لزاماً على قبيلة القتيل أن تطلب الثأر من القاتل ، فتطالب بتسليمه لتقتص منه ، ولكن تسليم القاتل يعتبر عاراً على قبيلته ، كما أن قبول الدية من قبيلة القاتل يعتبر عاراً لقبيلة القتيل التي تسعى إلى الظفرة بالقاتل . وكانت دية النفس عند عامة القبائل مائة من الإبل ، ولكن دية الملوك والأشراف تصل إلى ألف بعير . وكانوا يأخذون أنفسهم بطقوس بدوية منها جز الشعور وشق الجيوب وخمش الوجوه وخروج الأبكار وذوات الخدر ، كما فعل آل كليب عندما قتله جساس .

د ـ أيام العرب :

نقصد بأيام العرب الوقائع والمعارك التي نشبت بين قبائل العرب في الجاهلية ، لأسباب متعددة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية ، فبعض القبائل كانت ترى الغزو أمراً طبيعياً لتسود وتسيطر وقد يكون الهدف اقتصادياً ، وقد يكون مجرد الرغبة في الغزو أو

الاستجابة لما تتطلبه التبعية للروم أو للفرس .

وهكذا كانت حياة العرب قتال في قتال ، ويتعدد القتل والثأر ، ولكثرة سفك الدماء اصطلح العرب على أشهر أربعة حرموا فيها القتال تعرف بالأشهر الحرم وهي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، ومع ذلك فقد كان النسأة ينسئون الشهور أي يؤخرونها وأول من نسأ الشهور حذيفة ابن عبد بن فقيم ، يقول عمير بن قيس جذل الطعان :

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراماً ؟

ومعظم هذه الأيام تحمل أسماء المواضع التي قامت بجوارها مثل يوم ذي طلوح ، ويوم ذي قار ، ويوم عين أباغ ، وقد تسمى بعض أيام العرب بأسماء من تسبب في قيامها ، مثل حرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء أو بالمناسبة التي حدثت فيها مثل حرب الفجار . وسنقتصر هنا على تلخيص بعض الأيام المشهورة .

١ - يوم خزاز (أو خزازي) :

من الوقائع الكبرى ، والتي وقعت بين العدنانية والقحطانية ، وبين معد ومذحج وانتهت بانتصار معد ، وإلى هذه الواقعة يرجع الفضل في تحرر عرب عدنان من التبعية لحمير . وسبب هذا اليوم أن مضر وربيعة اجتمعوا على أن يجعلون منهم ملكاً يقضي بينهم ، فكل أراد أن يكون منهم ، ثم تراضوا على أن يكون من ربيعة ملك ، ومن مضر ملك ، ثم اختلفت بطون مضر وربيعة على ذلك ، وأخيراً اتفقوا على أن يتخذوا ملكاً من اليمن ، ثم ثار بنو أسد بحجر وقتلوه ، ونهضت بنو عامر على شراحيل فقتلوه ، وقتلت بنو تميم

محرقاً ، وقتلت وائل شرحبيل ، ولم يبق من بني آكل المرار غير سلمة .

وأراد سلمة بن الحارث أن يثأر لإخوته ، فجمع جموع اليمن ليقتل نزاراً ، وبلغ الخبر إلى كليب وائل ، فجمع ربيعة ، وقدم على مقدمته السفاح التغلبي وأمره بأن يعلو جبل خزازي ، وأقبل سلمة ومعه جموع قبائل مذحج ، وهجمت مذحج على خزازي ليلاً ، واشتبك الفريقان وانتهى ذلك بانتصار ربيعة وهزيمة اليمن .

وفي يوم خزازي يقول عمرو بن زيد :

كانت لنا بخزازي وقعة عجب
لما التقينا ، وحادى الموت يحديها

٢ ـ حرب البسوس :

فقد كانت حرب البسوس معارك متفرقة حيناً ومتباعدة حيناً آخر ، ودامت وقائعها نحواً من أربعين سنة . وتفصيل حرب البسوس أن لواء ربيعة بن نزار كان يتوارث بين بنية من الأكبر إلى الأكبر من ولده ، فوليه وائل بن ربيعة ، المعروف بكليب ، بطل يوم خزازي ، وكان لكليب حمى من العالية لا يقربه أحد قط ولا يتجرأ شخص أن يطأه ، وأصبح الناس لا يرعون إبلهم مع إبله ، ولا يتجرأ أحد أن يمر بين بيوته . ثم تزوج كليب امرأة من شيبان من بكر هي جليلة بنت مرة بن شيبان أخت جساس بن مرة ، واتفق أن رجلاً يقال له سعد بن شميس ابن طوق الجرمي نزل بالبسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس ، وكان للجرمي ناقة اسمها سراب تركها ترعى مع نوق جساس في حمى كليب . فخرج كليب يوماً يتعهد الإبل ومراعيها ،

فأتاها وتردد فيها ، وكانت إبله وإبل جساس مختلطة وسأل جساساً ، عن أمرها ثم أمر بابعادها ، فاستاء جساس من ذلك لأن الجرمي نزيله وضيفه وله عليه حق الجوار ، وخرج كليب يوماً إلى الحمى . فرأى ناقة الجرمي فقتلها ، ركب جساس فرسه وحمل رمحه وقتل كليب ولما علم قوم كليب بمقتله دفنوه . وقد شقوا الجيوب وطردوا جليلة بنت مرة لأنها أخت قاتل كليب . وكان لكليب أخ اسمه مهلهل ، فلما بلغه مقتله جز شعره ، وحرم القمار والشراب ، وجمع قومه للثأر ، وهكذا نشبت الحرب .

ودامت الحرب أربعين سنة قتل فيها جساس على يدي الهجرس بن كليب . ولم تنته الحرب إلا بعد أن قام قيس بن شراحيل بن مرة بالصلح بين بكر وتغلب ، بعد أن ترك مهلهل ديار قومه ومضى إلى اليمن .

٣ ـ حرب داحس والغبراء :

وحدثت بين بني عبس وبين بني ذبيان وبني غطفان ، وكانت مناوشات استمرت زهاء أربعين سنة (من ٥٦٨ إلى ٦٠٨ م) . وكان سببها أن حذيفة بن بدر الفزاري وورد بن مالك، تراهنا على فرسين من خيل حذيفة هما ، داحس والغبراء ، فخاف حذيفة أن يظفر قيس بالرهن فأقام رجلاً من بني أسد في الطريق ، وأمره أن يعترض داحساً والغبراء في وادي ذات الاصاد ويعوقها عن السباق ، وانتهى السابق بسبق الغبراء ، واختلف قيس وحذيفة في السبق ، وطالب حذيفة بالرهن وأرسل إبنه إلى قيس يطالبه به ، فقتله قيس ، فقامت الحرب بين عبس وذبيان ولم تتوقف إلا بعد أن تدخل الحارث بن

عوف بن حارثة المري ، وهرم بن سنان .

ـ ٢ ـ

الحياة الاجتماعية

١ ـ المجتمع القبلي في الجاهلية :

(١) طبقات المجتمع :

كان المجتمع القبلي في الجاهلية ينقسم إلى ثلاث طبقات اجتماعية : طبقة القبيل أو جمهوز أبناء القبيلة الصرحاء ، وطبقة الموالى الذين اندمجوا في القبيلة عن طريق الحلف أو الجوار، ثم طبقة العبيد والرقيق.

أما طبقة الصرحاء فهم أبناء القبيلة الذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم ، وكانوا يهبون لتلبية نداء القبيلة والقبيلة نظير ذلك تسبغ عليهم حمايتها ، وتمنحهم حق التصرف ولكنها لا تبيح لهم الخروج على العرف والتقاليد ، فإذا سلك الفرد سلوكاً يسيء إلى سمعة القبيلة ، نبذته القبيلة ، فيعتبر خليع قبيلته ، وعندئذٍ يلجأ إلى قبيلة أخرى ، فيعتبر جاراً لها أو مولى من مواليها ، أو يلجأ إلى الصحراء ، ويصبح صعلوكاً أو مغامراً.

أما طبقة الموالى فيدخل فيها الحلفاء، وهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم وفصلتهم عنها ثم دخلوا في قبيلة أخرى كما يدخل فيها الصعاليك المغامرون والعتقاء ، وكانوا في الأصل عبيداً .

وكان لهؤلاء الموالى نفس حقوق أفراد القبيلة ولكن رابطة

الجوار كانت موقوته ، فهي تبقى ببقاء الجار في كنف مجيره ،.وتحل بخروجه ، ولكن رابطة الحلف تبقى وقد شاع نظام الحلف في العصر الجاهلي حتى أن القبائل التي اعتمدت على نفسها ولم تدخل في أحلاف سميت جمرات العرب ، ويتم الحلف عن طريق المواثيق والعهود ، كحلف المطيبين وحلف الفضول وحلف قريش والأحابيش .

أما طبقة الرقيق فكانت تؤلف طبقة كبيرة في المجتمع القبلي في الجاهلية ، والرقيق إما أبيض أو أسود ، ومعظمهم يشتري في الأسواق ، وبعضهم يجلب من أسرى الحروب . وكان أبناء الإماء البيض من آباء عرب يعرفون بالهجناء ، أما أبناء الإماء السود، فيطلقون عليهم إسم أغربة العرب ، ومن هؤلاء عنترة بن شداد .

وكانت طبقة العبيد محرومة من الامتيازات ، مثقلة بالواجبات نحو ساداتها ؛ ، وكان في إمكان العبد أن يعتق إذا قام بعمل خارق أو أدى خدمة عظيمة لسيده تبرر عتقه وتحريره .

ب ـ الأغنياء والفقراء :

كان من العرب فريق ينعم بالثراء والترف ، وفريق يعاني مرارة الفقر والبؤس، أما الفريق الأول فكانوا يشتغلون بالتجارة ، وكان أثرياء العرب قلة إذا قيسوا بفقرائهم الذين يؤلفون جمهور سكان البادية. ولقد صور الشعراء ما كان ينعم به الأغنياء.

وتصف الخنساء ثياب قومها في السلم فتقول :

ونلبس في الحرب سرد الحديد
وفي السلم خزا وعصباً وقزا

وكان كل سراة قريش تجاراً ، فكانوا ينظمون عيرهم في الشتاء إلى اليمن حيث يبتاعون سلع الهند والحبشة فيحملونها إلى الحجاز ، وعيرا في الصيف إلى الشام ، فيفرغونها في أسواق غزة وبصرى وغيرهما .

وقد أدى اختلاط القرشيين بالروم والفرس والأحباش إلى أخذهم الكثير من تقاليد هذه الشعوب ، فتأثروا بهم . ومن مظاهر ثراء قريش أن عثمان بن عفان جهز وحده جيش العسرة (تبوك) بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمها ألفاً بخمسين فرساً ، وهو الذي اشترى بئر رومه في يثرب .

ومن مصادر ثروات العرب الأسواق التي كانت تقوم على فرض البحر مثل سوق عدن ، وصنعاء وعمان ، أو الداخلية كحجر وحضرموت وعكاظ وذي المجاز والمجنة والمربد ، أما الفقراء فكانوا يؤلفون سواد العراب ، وصعاليك العرب ، هم جماعة أصابهم الفقر ، فتاقوا إلى الغنى ، عن طريق المغامرة والغزو اعتقاداً منهم أن المال مال الله ، وكان الصعاليك مغامرين يتسمون بالشجاعة والأنفة ، ولذلك عدت الصعلكة عند العرب مفخرة ومزية لأنها شيمة الشجعان .

ج ـ صفات العرب :

١ ـ الكرم :

كان العربي يعتبر الكرم إحدى مظاهر التسيد ، وفي ذلك يقول حاتم الطائي :

يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد
وما كنت لولا تقولون سيد

ويتجلى كرمهم في الاحتفاء بالضيف والترحيب به ، وفي إكرام الأرامل واليتامى والسائلين وكانوا يتباهون بكثرة الأضياف ، وممن اشتهر بالجود والكرم وضرب به المثل والسخاء حاتم الطائي ، وفي ذلك يقول :

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً
وما فيّ إلا تلك من شيمة العبد

٢ ـ الشجاعة :

اتصف العرب بالشجاعة والبأس وعدم المبالاة بالموت ، إما دفاعاً عن ذمار القبيلة أو ذبا عن الحريم وعرب البادية كانوا أكثر شجاعة من أهل المدن .

إن قريشاً عندما أثرت بسبب التجارة انصرفت عن شئون الحرب ، والبدو يحقرون التجارة بطبيعتهم ، فصاروا يعيرونها بها ، وممن اشتهر بالشجاعة من العرب خالد بن جعفر بن كلاب العامري، وعمرو بن معد يكرب، وعمرو بن كلثوم . وعنترة العبسي .

٣ ـ العفة :

وكانت العفة من شروط السيادة كالشجاعة والكرم ، وكانوا يفتخرون بالعفة ويمدحون بها ، فهذا عنترة بن شداد يقول :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

٤ ـ الوفاء :

عرف العرب بالوفاء بالعهود ، وبكراهية النكث والغدر ، وضربوا المثل في الوفاء بالسؤال وقصة وفاء هاني بن مسعود الشيباني لودائع لودائع النعمان معروفة ، وقد أدى وفاؤه إلى قيام الحرب بين العرب والفرس في ذي قار.

د ـ المرأة في المجتمع الجاهلي :

١ ـ الأسرة :

كان العربي في الجاهلية لا يكتفي بزوجة واحدة ، إما بقصد إعالتهن أو لغرض سياسي ، إذا كان رئيساً بين قومه ، أو بقصد الإكثار من الذرية والتناسل . وكان الزواج أنواعاً منها :

(١) **زواج الصداق أو البعولة** : ويتم بأن يخطب الرجل من الرجل ابنته ، فيصدقها بصداق يحدد مقداره ثم يعقد عليها، وكانت قريش وكثير من قبائل العرب يؤثرون هذا النوع من الزواج .

(٢) **زواج المتعة** : وهو تزويج المرأة إلى أجل ، فإذا انقضى افترقت عنه وفي هذا الزواج ، يقدم الزوج صداقاً معيناً ويكون لأولاده حق الانتساب إليه وحق الإرث .

(٣) **زواج السبي** : ويقضي بأن يتزوج الرجل المحارب من إحدى النساء اللائي وقعن سبياً ، ولا يشترط في هذا الزواج أن يدفع الزوج صداقاً .

(٤) **زواج الاماء** : من حق العربي أن يتزوج من أمته ، فإذا أنجب منها أبناء لا يحق لهم أن يلحقوا بنسبه ، بل يظلوا عبيداً له ،

وقد يعتقهم إذا رغب في ذلك .

(٥) **زواج المقت** : وهو أن يتزوج الرجل زوجة أبيه كجزء من ميراثه .

وهناك أنواع أخرى من الزواج مثل الاستبضاع والمخادنة والبدل والشغار والرهط . وكان العرب في الجاهلية يطلقون نساءهم ثلاثاً على التفرقة ، أو على الخلع أي تخلع منه بمال ، وكان العرب يؤثرون البنين على البنات ، وذلك لاعتماد العرب على الذكور في الصيد والغزو والحروب ، ومع ذلك فقد كان كثير من العرب يعطفون على نباتهم ويدللونهن ، ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن معن بن أوس الشاعر كان مئناثاً ، وكانت له ثلاث بنات يؤثرهن ويحسن صحبتهن ، فيقول :

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم ... وفيهن لا تكذب نساء صوالح
وفيهن والأيام يعثرون بالفتى ... عوائد لا يمللنه ونوائح

ومن مظاهر إعزاز الآباء لبناتهم أن كان بعضهم يكنى بأسماء بناته ، فكان ربيعة بن رياح والد زهير الشاعر يكنى بأبي سلمى ، والنابعة الذبياني كان يكنى بأبي أمامه .

وقد بالغ بعض الناس في بغضهم للبنات عند ولادتهن إلى حد الوأد وقد اختلف الباحثون في توضيح أسباب الوأد ، ونلخص هذه الأسباب فيما يلي :

١ ـ شعور العربي في الجاهلية بالغيرة والخوف من العار الذي تجليه بناته إذا كبرن وتعرضن للسبى ، وذكروا أن أول من وأد بناته

في الجاهلية قيس بن عاصم المنقرس من تميم ، وذكر بعضهم أن عادة وأد البنات نشأت بادىء ذي بدء في ربيعة .

٢ ـ ورد في القرآن الكريم أن بعضهم كان يئد بناته خشية الفقر والإملاق ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق . نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً** ﴾ .

٣ ـ أرجع بعضهم سبب الوأد إلى صفات في الموؤودة كان يتشاءم منها أهلها ، فكان بعضهم يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء .

٤ ـ وأرجع آخرون الوأد إلى أسباب دينية ، كإظهار الشكر لله على نعمه ، كما كان يفعل الفراعنة مثلاً ، فيختارون في كل عام فتاة جميلة يرمونها في النيل تقرباً للإله حعبي .

٥ ـ وأرجع بعض الباحثين الوأد إلى عوامل اجتماعية ، منها ماله علاقة بصحة الطفل إذا ولد ضعيفاً أو مشوهاً، وإذا أصيب بمرض لا يرجى منه الشفاء بحيث يصبح عالة على أهله ، ومنها ماله علاقة بكثرة عدد البنات . ونهى الله تعالى عن ذلك .

ومع ذلك فقد وجد إناس كانوا يسعون إلى منع الوأد ، وذلك بشراء الموؤودة ، مثل ذلك أن صعصعة بن ناجية المجاشعي جد الفرزدق الشاعر أنقذ ثمانين ومائتي موؤودة ، اشترى كل منها بناقتين عشراوين وجمل .

٢ ـ دور المرأة في السلم والحرب

لعبت المرأة العربية دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية وحظيت

بمكانة كبيرة في المجتمع العربي بحيث لم يجد بعض الملوك بأساً من الانتساب إلى أمهاتهم مثل المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة وماء السماء لقب أمه مارية بنت عوف ، فهذا القتال الكلابي يفتخر بأمه الحرة عمرة بنت حرقة فيقول :

لقد ولدتني حرة ربعية
من اللاء لم يحضرن القيظ دندنا

كذلك كانت للمرأة كزوجة مكانتها في المجتمع الجاهلي ، فقد كانت شريكة الرجل في حياته في السلم وفي الحرب ، وكما كانت الزوجة محل إعزاز الزوج ، فقد كان الزوج كل شيء في حياة الزوجة .

والمرأة في السلم تقضي وقتها بين مساعدة زوجها في الزراعة أو في الطهي وحلب الأغنام ، أو بغزل الصوف ونسجه ، وكثيراً ما كانت تحترف بعض الأعمال كالتجارة أو الرضاع أو الغناء أو النسيج أو تقويم الرماح أو دبغ الجلود . أما في الحرب فكانت تصحب زوجها أو تداوي الجرحى ، أو تسقي المقاتلين ، وفي بعض الأحيان كانت تشترك في القتال ، مثل نسيبة أم عمار بنت كعب المازنية التي دافعت عن الرسول في يوم أحد .

الباب الأول
ظهور الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية
الفصل الأول
الدعوة إلى الإسلام

– ١ –

التمهيد لظهور الاسلام واستعداد العرب لتقبل الدعوة الاسلامية

كان ظهور الاسلام انتقالاً حاسماً في تاريخ العرب ، إذ جعل لهم ديناً واحداً يدعو إلى الوحدانية ، وحقق لهم وحدتهم السياسية ، وجعل من العرب أمة موحدة قوية ، فمن الناحية السياسية كان المثل العربي في العصر الجاهلي يقوم على نظام القبيلة ، إذ كان نجتمعنا مفتتاً من الناحية السياسية إلى وحدات سياسية متعددة قائمة بذاتها ، ثم إننا نجد العرب قبيل الإسلام يفطنون إلى مطامع الروم والفرس في بلادهم ، ويحسون بخطر الطمع الأجنبي يتهددها ، فتبعث الروح القومية في اليمن على أثر استيلاء الأحباش عليها ، كذلك كان انتصار عرب الحيرة على الفرس في موقعة ذي قار سنة ٦٠٩ م انتصاراً للعرب جميعاً ، وقد حقق الإسلام وحدة العرب في الجزيرة وفي الشام والعراق ، حيث كانت تنزل بعض القبائل العربية .

أما من الناحية الدينية فقد تقاربت الأديان الوثنية قبيل الإسلام واشتركت بعض القبائل في عبادة صنم واحد ، ثم تطور الأمر إلى التوصل إلى اتفاق بين سائر القبائل على مراسيم عامة للحج إلى مكة في أشهر تعرف بالأشهر الحرم ، ثم إن الأفق الثقافي الديني للعرب أخذ يزداد اتساعاً باحتكاك العرب بيهود الحجاز واليمن أو بنصارى الشام والعراق ونجران، فأخذت الديانات الوثنية تتداعى أمام هاتين

الديانتين السماويتين ، ثم ظهر جماعة من المتحنفين ، أخذوا يشككون الناس في الديانات الوثنية ويصرفونهم عن التفكير في عبادتها إلى التوحيد وعبادة الله خالق السموات والأرض .

أما من الناحية الاقتصادية ، فقد نظمت قريش رحلتي الشتاء والصيف بين شمال جزيرة العرب وجنوبها ، أعدتهم بعض الشيء لدورهم الطليعي المقبل .

ـ ٢ ـ
سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

١ ـ من المولد حتى المبعث :

كان العرب إذن مهيئين للنقلة ، متأهبين للثورة الدينية السياسية الكبرى وأصبحت الدعوة في آن واحد إلى دين ودولة . ظهرت هذه الثورة في مدينة مكة معقل الوثنية العربي ، والمركز التجاري الهام .

وصاحب الدعوة هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة ، ويرتفع نسبه الكريم إلى ابراهيم الخليل . وأمه ﷺ هي آمنة بنت وهب . أما أبوه عبد الله فكان أصغر ولد عبد المطلب وقد توفي عبد الله وزوجه آمنة حامل بالنبي ، ولد النبي محمد ﷺ بمكة بعد وقعة الفيل بخمسين يوماً في ليلة العاشر من ربيع الأول ، فأرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب ، فتوفيت أمه السيدة آمنة بنت وهب بالأبواء ، ثم كفله جده عبد المطلب إلى أن توفي ، وذكر أن عبد المطلب لما حضرته الوفاة جمع بنية وأوصاهم بالرسول الله ﷺ ، فأصابت القرعة

أبا طالب ، فضمنه إليه . ولما بلغ النبي ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج أبو طالب إلى الشام في تجارة ، وأخرجه معه . فلما وصلت القافلة إلى بصرى من أرض الشام ، رآه راهب نصراني منقطع في صومعة له ببصرى ، ولمح في النبي مخايل النبوة وعلاماتها ، فأوصى أبا طالب بأن يعود به إلى بلده وأن يحذر عليه اليهود.

وشب رسول الله ﷺ في مكة ، واشتغل حيناً برعي الغنم لأهل مكة وشهد الرسول بعض أيامها مثل يوم شمطة ، ويوم نخلة كذلك شهد النبي مع عمومته حلف الفضول . ولما تجاوز النبي سن العشرين وجهته السيدة خديجة بنت خويلد ، إلى الشام في تجارة لها ، وذلك عندما بلغها من أمانته وصدقة ووفائه . وحدثها غلامها ميسرة الذي رافق النبي في رحلته إلى الشام عن أمانته وما بشره به أحد الرهبان من أهل الشام ويدعى نسطور الراهب من نبوته ، فلما سمعت ما سمعته ، بعث إليه ، وأرسلت إلى عمرو بن أسد عمها ، وحضر الرسول ومعه عماه أبو طالب وحمزة ، فزوجها عمرو إياه . وكانت خديجة أول امرأة تزوجها النبي، وتم ذلك وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي ابنة أربعين سنة ، ولم يتزوج النبي غيرها حتى ماتت ، فولدت لرسول الله ولده كلهم إلا ابراهيم .

ولما بلغ النبي محمد ﷺ أربعين سنة من عمره بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، فكان يخلو بغار حراء حتى جاءه الحق وهو في الغار . وكان يجاور في غراء حراء شهراً فيخلو فيه الأيام والليالي يتحنث على عادة الحنيفة، ويطعم من يقدم عليه من المساكين، فإذا قضى جواره بعد شهر انصرف إلى الكعبة ، فيطوف بها سبعاً ،

ثم يعود داره . ويكاد يجمع الأخباريون على أن أول ما نـزل على النبي من القرآن سورة العلق ، فقد نزل عليه جبريل وهو في غـار حراء وقال له : « اقرأ » ، فكرر النبي قوله : « ما أنا بقارىء » ، وكرر ما طلبه منه للمرة الثالثة ، وقال : « اقرأ » قال النبي : « ماذا أقرأ » ، فقال : ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم**﴾ .

ب ـ من البعث حتى الهجرة إلى يثرب :

١ ـ الدعوة إلى الاسلام :

ثم فتر الوحي عن النبي فترة حتى شق عليه ذلك ، فأحزنه حزناً شديداً ، وذكروا أنه لما أبطأ النبي التنزيل بعض الإبطاء ، قال كفـار قريش : « ودعه ربه وقلاه » ، فنزلت عليه سـورة الضحى ، وبينما كان يسير يوماً إذ سمع صوتاً، فرفع رأسه إلى مصدره، فإذا جبريل بين السمـاء والأرض ، فخشي منه النبي رهبـة ، وأسرع إلى داره يرتجف وأتى خديجـة وطلب منها أن تـدثره ، فنـزلت عليه سـورة المدثر : ﴿ **يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر** ﴾ . فبادر النبي ﷺ بالدعوة إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان والأصنام وبدأ بأقرب الأقـربين إليه ، ثم دعـا قومـه مستخفياً ثـلاث سنين ، جهر بالدعوة بعدها . وأول من آمن بنبوته ورسالته وأسلم زوجه خديجة أول من أسلم من الموالي زيد بن حارثه ، ومن الغلمان علي بن أبي طالب وكان يـومئذٍ ابن عشـر سنين ،ومن الرجـال الأحرار أبـو بكر الصديق . ثم دخل في الإسلام جماعات من الرجال والنساء ، حتى انتشر ذكر الإسلام في مكة وتحدثت قريش بذلك . وظل النبي يدعو

سراً ثلاث سنين من بعثه ، ثم جهر بالدعوة عندما أمره الله تعالى بإظهار دينه ، « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزءين » . وذكر ابن سعد أنه لما نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » ، صعد رسول الله ﷺ على الصفا ، فنادى قومه فأقبلوا عليه وسألوه عن طلبه قال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً أفسح هذا الجبل ، أكنتم تصدقونني ؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط . قال : فإني « نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك ، سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ . فأنزل الله عز وجل فيه : ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ .

اضطهاد قريش للمسلين :

وواصل النبي عرض دعوته على قومه ، وعاب آلهتهم وسفهها ، وحقر من شأنها ، فناكروه ، وأجمعوا على معاداته وإيذائه ، وقدم جماعة منهم إلى عمه أبي طالب ، وطلبوا منه إما أن يكفه عنهم أو يخلي بينهم وبينه . وكان أبو طالب ملماً بكل ما يفعله ابن أخيه ، وكان يعطف عليه ويمنعه ، ويبدو أنه لم يشأ أن يحدثه فيما خاطبه فيه القرشيون . ومضى رسول الله على ما هو بسبيله وأدركت قريش مدى خطورة الدعوة الإسلامية وقصدوا أبا طالب مرة ثانية فعظم الأمر على أبي طالب ، فبعث إلى رسول الله ﷺ ، وأفضى إليه بما حدَّثه قومه بشأنه ، ورجاه أن يبقي على نفسه وعليه ، فقال رسول الله لعمه : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره أو أهلك فيه ما تركته » ، ومنذ ذلك الحين ، نذر أبو طالب حياته ، ووقفها لحماية النبي .

ثم تسلط مشركو قريش عليه وعلى من اتبعه من المسلمين ، وكان من أشد الناس قسوة عليه عمه أبو لهب وامرأته ، فتعرض لإيذائهم جمهور كبير من أتباع النبي وعلى رأسهم بلال بن رباح مولى أبي بكر وعمار بن ياسر وأبويه .

٣ ـ الهجرة الأولى إلى الحبشة :

ولما رأى النبي ما أصاب أتباعه المسلمين من البلاء والاضطهاد ، أذن لهم بالهجرة إلى أرض الحبشة لما عرفه عن ملكها أصحمة من تسامح ، ويعتقد أن اختيار النبي للحبشة بالذات كان له مغزيان : الأول ، أن يلقى المهاجرون ترحيباً من ملك الحبشة أملاً في أن يتمكن بمساعدتهم من التدخل في شؤون مكة الداخلية . والثاني ، والإيماء إلى قريش بأن عدوانها على المسلمين قد يضطرهم إلى الالتجاء إلى قوة خارجية لحمايتهم . ونضيف أن الحبشة كانت بلداً مسيحياً ولذلك لا نستبعد أن يكون النبي قد هدف من وراء اختياره لأرض الحبشة إلى كسب تأييد لدعوته من شعب مؤمن بالمسيحية ، أو إلى اجتذاب أفواج جديدة من خارج الجزيرة إلى دين الإسلام . وقد أثمرت هذه السياسة بدليل أنه قدم على رسول الله وهو بمكة عشرون رجلاً أو ما يقرب من ذلك العدد من نصارى الحبشة ، آمنوا به وصدقوه .

وانتهى عدد من هاجر إلى الحبشة من المسلمين إلى ثلاثة وثمانين رجلاً بخلاف الزوجات والأبناء . ويبدو أن هذا العدد كان يضم المهاجرين إليها في الهجرتين الأولى والثانية .

٤ ـ رسل قريش إلى النجاشي :

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد آمنوا في الحبشة واستقروا بها ، اتفقوا على أن يبعثوا إلى النجاشي رجلين يحملان إليه وإلى بطارقته هدايا وذلك لإقناعه برد المسلمين . فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة اللذين دفعا كثيراً من الهدايا إلا بطارقة النجاشي ، فوعدهم البطارقة بتأييدهما . ثم قدما على النجاشي ، وسألاه أن يرد إليهم المسلمين ، فغضب النجاشي ، وأبى أن يسلم قوماً استجاروا به ، ثم أمر بإحضار أصحاب رسول الله فسألهم عن مبادىء الإسلام فتقدم منه جعفر بن أبي طالب ، فطلب النجاشي منه أن يقرأ عليه شيئاً من القرآن ، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم ، سأل النجاشي جعفر بن أبي طالب عما يقوله الإسلام في عيسى بن مريم ، قال : « هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول » ، فأعجب النجاشي من إجابته ، ورحب بالمسلمين ، وأمنهم في أرضه .

٥ ـ الهجرة الثانية إلى الحبشة :

ثم بلغ أصحاب النبي المهاجرين إسلام أهل مكة واصطلاحهم مع النبي ، رحلت طائفة منهم إلى مكة . وما كادوا يقتربون من مكة حتى تبين لهم بطلان ما أبلغوا به ، وقد تعرض هؤلاء العائدون لاضطهاد أهل مكة وإيذائهم ، فاذن لهم الرسول بالهجرة للمرة الثانية إلى الحبشة ، فهاجر ٨٣ رجلاً ومن النساء ١١ امرأة قرشية ، و٧ غرائب .

٦ ـ ذروة اضطهاد قريش للنبي :

ظل الرسول يلقى في مكة معارضة قوية من قريش لدينه ، وتعرض منهم لكل صنوف الأذى . على أن الإسلام لم يلبث أن تقوى وعز وامتنع بإسلام حمزة بن عبد المطلب ثم بإسلام عمر بن الخطاب . فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد هاجروا إلى الحبشة حيث أصابوا أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منعهم منه ، وأن حمزة وعمر قد دخلا في الإسلام ، ائتمروا فيما بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعزلهم عنهم ، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم . إنحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه ، ولم يخرج عن إجماعهم إلا أبو لهب وعبد العزى عما الرسول ، وحوصر بالنبي وقومه في الشعب ثلاث سنوات قطعت قريش عنهم خلالها الميرة حتى بلغهم الجهد ، غير أن الصحيفة القرشية لم تلبث أن نقضها نفر من قريش ذاتها . فاجتمعوا وتعاقدوا على نقض الصحيفة وإبطالها ، فعارضهم أبو جهل ، نهض المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها ، ولم يبق من كتابتها سوى عبارة « باسمك اللّهم » .

وفي هذا العام العاشر من البعثة ، وفي الوقت الذي اشتد اضطهاد قريش للنبي ، فقد النبي سندين وناصرين له في نضاله في سبيل الحق : أولهما عمه أبو طالب ، ثم زوجه الوفية خديجة . وفي هذا العام أيضاً أسرى الله بنبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصه ببيت المقدس ، وعرج به في هذه الليلة إلى السماء .

فلما اشتد إيذاء قريش للنبي خرج في ٢٧ شوال سنة ١٠ من النبوة وحده إلى الطائف ، وقيل ومعه زيد بن حارثة مولاه ،ثم انصرف النبيّ من الطائف إلى مكة محزوناً لم يستجب له رجل واحد ، فوصلها في ٢٣ من ذي القعدة .

٧ ـ بيعتا العقبة الأولى والثانية :

كان رسول الله يعرض نفسه على قبائل العرب ولا يسألهم إلا إيوائه ومنعته حتى يبلغ رسالة ربه ، فكان يواصل اتصلاته بأشراف العرب ، ثم خرج رسول الله في الموسم الذي لقيه فيه جماعة الأنصار في العام السابق ، فعرض نفسه على قبائل العرب مثلما كان يفعل في كل موسم ، فبينما كان عند العقبة إلتقى برهط يتألف من ستة شيوخ من الخزرج المقيمين بيثرب ، وكان الأوس قد غلبوهم في يوم بعاث ، فدعاهم النبي إلى الإسلام ، وتلا عليهم آيات قرآنية ، فصدقوه وأسلموا على يديه ، وعزموا على أن يحدثوا قومهم في شأنه .

وفي العام التالي ، أي العام الثاني عشر من النبوة ، قدم إلى موسم الحج الأنصار عشر من الخزرج واثنان من الأوس ، ثم عزموا على الاجتماع برسول الله ، فلقوه بالعقبة فبايعوه عندها بيعة النساء ، وهي العقبة الأولى ، وقبل أن ينصرفوا عن النبي بعث معهم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين .

ولما كان موسم الحج التالي ، أي في عام ١٣ من البعثة النبوية ، قدم إلى مكة لفيف من الأنصار المسلمين مع حجاج قومهم

من الوثنيين ، فاتفق الأنصار على مقابلة النبي ﷺ .

وأبدى الأنصار صدق نيتهم ، وأظهروا إخلاصهم للنبي ، ثم اتفق معهم على أن يختاروا منهم اثني عشر نقيباً يمثلون قومهم ، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

وعرفت بيعة العقبة الثانية ببيعة الحرب ، وقد حددت وضع النبي بين أهل يثرب ، وقضت أيضاً بخروج النبي من أهل مكة فانتقلت تبعية النبي لذلك من مكة إلى يثرب ، ولهذا السبب حرص المسلمون على إخفاء أمر هذه البيعة ، إذ أن حماية الأوس والخزرج للنبي لا تبدأ إلا بعد وصوله إلى يثرب ، زد على ذلك أن النبي لم يكن قد أمر بعد القتال ولم تحلل له الدماء ، إنما كان يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى . فلما بغت عليه قريش ، وعتت على أتباعه ، إذن الله عز وجل له بالقتال والانتصار ممن ظلمه وظلم أتباعه . وجاء الإذن للمسلمين بالهجرة إلى يثرب بعد أن ضيقت قريش على المسلمين .

فخرج المسلمون إلى يثرب أرسالاً ، أما الرسول ، فقد أقام بمكة ينتظر أن يأذن له ربه بالخروج من مكة إلى يثرب دار الهجرة . ولم يبق معه بمكة من المسلمين إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق . فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد هاجروا إلى يثرب وأصابوا منهم منعة ، خافوا لحاق النبي بهم ، فاجتمعوا في دار الندوة ، ليتشاوروا فيما يصنعون في أمر الرسول ، ثم اقترح عليهم أبو جهل أن يجمعوا من كل قبيلة فتى شاباً قوياً شريفاً في قومه ، ذا نسب ، ثم يعمدوا إلى النبي فيقتلوه . وأبلغ النبي ﷺ بما تآمر عليه

القرشيون ، وأمره الله بعدم المبيت على فراشه في تلك الليلة كما أمره بالهجرة فلما حل ظلام الليل ، عهد إلى علي بن أبي طالب بأن يبيت في فراشه ، ثم خرج النبي من وسط المتآمرين دون أن يفطنوا لخروجه أو يبصروه ، ومضى النبي إلى دار أبي بكر ، وركبا راحلتين ومضيا في طريق يثرب حتى أتيا غار ثور فدخلا فيه .

أما المتآمرون فقد باتوا أمام دار النبي وهم يحسبون علياً النبي ﷺ فلما أصبحوا وجدوا علياً في فراش النبي ، فبادروا باقتفاء أثر النبي حتى انتهوا إلى باب الغار ، فألفوا الغار وقد كسي بابه بنسج عنكبوت فأدركوا أن النبي لم يدخله، فانصرفوا. ولما وصل النبي ﷺ إلى المدينة ، نزل في علو المدينة فأقام هناك أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليالي أسس خلالها مسجد قباء. ثم ركب الرسول راحلته وسار يمشي معه الناس حتى بركت ناقته في مربد للتمر لغلامين يتيمين ، فقال حين بركت به راحلته : « هذا إن شاء الله المنزل » ، فابتاعه منهما .

الفصل الثاني
قيام دولة الرسول في المدينة

ـ ١ ـ
الأسس التي قامت عليها دولة المدينة

لم يلبث رسول الله بعد أن هاجر إلى يثرب أن أصبح رئيساً لأحزاب غير متجانسة ، فعمد إلى توحيدها بأن ربط بين المهاجرين والأنصار برابطة المؤاخاة ، وشرع بعد ذلك في وضع نظام للحياة الاجتماعية وأخيراً شرع الجهاد فمنحهم صفة سياسية لم تكن لديهم

من قبل ، واستكملت يثرب بذلك أهم خصائص الدولة المدينة .

أولاً ـ بناء المسجد الجامع بالمدينة :

شرع رسول الله في بناء مسجد للمسلمين ، واتخذ المسجد شكلاً يقرب من شكل المربع . وكان رسول الله ينقل الحجارة بنفسه ، وأعانه أصحابه على ذلك ، حتى اغبر صدره .

ولم يكن المسجد باديء ذي بدء سوى ساحة فسيحة لا ظلة لها ، فشكا المسلمون إلى النبي من شدة الحر بسبب تعرضهم لحرارة الشمس ، فأقام لهم ظلة واستخدام الرسول جذوع النخل سوارى للقبلة المسقوفة ، وبنى إلى جوار المسجد بيوتاً باللبن . أما القبلة فقد وجهها النبي ﷺ إلى بيت المقدس .

أما ما يتعلق ببيوت أزواج النبي ، فلم تكن جزءاً من المسجد ، ولكن أبوابها كانت شارعة فيه ، أضيفت كلها إلى المسجد بعد موت أزواج النبي . ثم حولت القبلة إلى الكعبة . وترتب على تعديل اتجاه القبلة إقامة ظلة جديدة إلى الجانب القبلي من المسجد ، ولم يكن للمسجد في أول بنائه منبر ، ثم عهد النبي إلى كلاب مولى العباس بن عبد المطلب بعمل منبر من درجتين ومقعد ، ولم يكن للمسجد يومئذٍ مئذنة ، لأن المئذنة ليست عنصراً رئيسياً في تخطيط المسجد وبنائه ، وإنما هي من العناصر المعمارية الستحدثة في الإسلام .

وضاق مسجد الرسول في المدينة بالمصلين فاشترى النبي أرضاً لأنصاري زادها في المسجد . وفي خلافة أبي بكر تآكلت الجذوع القديمة ، فجددها أبو بكر ولم يزد أبو بكر في مسجد الرسول شيئاً ،

ولكن عمر بن الخطاب زاد فيه ، ثم زاد عثمان بن عفان في المسجد زيادة كبيرة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج . واتخذ فيه مروان بن الحكم مقصورة من الحجر المنقوش . ثم زيد في المسجد في زمن الوليد بن عبد الملك، ثم رمم في خلافة المتوكل على الله في سنة ٢٤٧ . وما زال موضع عناية سلاطين مصر المملوكية سلاطين آل عثمان حتى أصبح بحق متحفاً تاريخياً للفن الإسلامي . ويعبر مسجد الرسول في المدينة ، ببساطته عما وضعه الإسلام من تعاليم دينية : فنظام النسب فيه يقوم على أساس إنساني هو الوضع الأفقي في نظام يتسق ونظرية المساواة في المجتمع الإسلامي ، كان تخطيطه ونظام بنائه أساساً لسائر أنواع العمائر الإسلامية المتأخرة وأصبح المركز الديني الذي تلتف حوله بقية مراكزها العمرانية ، وهو الذي يطبع المدينة الاسلامية بالطابع الإسلامي ، باعتباره المركز الديني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي للمدينة : فقد كان مسجد الرسول مركزاً لصلاة المسلمين ، ودار ندوة ففيه كان يتشاور النبي مع الصحابة في شؤون جماعة المسلمين وفيه كانت تستقبل وفود العرب وفيه كانت تعقد ألوية المسلمين عند خروجهم . وكان المسجد مركزاً علمياً وثقافياً ، فكان الصحابة يتولون تعليم القرآن والسنة وكان مركزاً اجتماعياً ، وفيه كان يجتمع الصحابة مع الرسول يتحادثون ويتناشدون الأشعار ويذكرون أشياء من أمر ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم رسول الله .

ثانياً ـ مؤاخاة النبي ﷺ بين المهاجرين والانتصار :

إن المؤاخاة تمت على ثلاثة مراحل : الأولى بين الأنصار

بعضهم لبعض ، ونعني بالأنصار الأوس والخزرج ، الذين نصروا النبي وبايعوا له والثانية بين المهاجرين بعضهم لبعض والثالثة بين الأنصار والمهاجرين ، وقال للمهاجرين والأنصار : « تآخوا في الله » ثم أخذ بيده علي بن أبي طالب ، فقال : « هذا أخي » ، وأصبح النبي أخاً لعلي ، وتآخى أبو بكر مع خارجة بن زهير الأنصاري ، وعمر بن الخطاب مع عتبان بن مالك الأنصاري ، وعثمان بن عفان مع أوس بن ثابت بن المنذر . وعلى هذا النحو من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، توثقت وحدة المسلمين في المدينة .

ثالثاً ـ الصحيفة :

وقبل أن ينصرم العام الأول من الهجرة ، كتب النبي محمد ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وأدع فيه يهود المدينة وعاهدهم ، وعرف الكتاب بالصحيفة . وقد تضمنت الصحيفة تنظيماً للحياة الاجتماعية في المدينة وتحديداً للعلاقات بين أهل المدينة المسلمين وبين يهودها .

ونستنتج من هذه الوثيقة الهامة التي تعتبر دستور الدولة المدينة عدة أمور ، منها :

١ ـ إن الصحيفة تجاهلت نظام والقبيلة وجعلت من المسلمين جميعاً ، مهاجريهم وأنصارهم ، ومن تبعهم أمة واحدة ولم تستبعد الصحيفة من مدلول الأمة الفئات التي لم تعتنق الإسلام بعد من الأوس وطائفة اليهود إذ أن درجة الانتماء إلى الأمة الإسلامية كما حددتها الصحيفة كانت قد برقت بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم .

٢ ـ على الرغم من أن الصحيفة تجاهلت نظام القبيلة ، إلا أن

هذا الاندماج لم يتم عن طريق القبيلة ، فكأن القبائل دخلت الأمة بتنظيماتها القبلية القديمة . كذلك أبقت الصحيفة على رابطة الولاء أباحت الصحيفة حق إجارة أي شخص غريب ، ولم تستثن إلا قريش ومن نصرها .

٣ ـ نظمت الصحيفة حق الأخذ بالثأر على نحو يجنب قيام حرب داخلية ، وبذلك تحول مبدأ الأخذ بالثأر إلى مبدأ القصاص والأخذ بالعقاب ، ويعتبر تفويض حق التأديب إلى الجماعة بدلاً من الفرد انتقالاً حاسماً له دلالته في المجتمع العربي الجديد .

٤ ـ تركت الصحيفة لله ولرسوله أمر فض أي نزاع أو اشتجار يخاف فساده : والمغزي من ذلك ، وهو تأكيد سلطة عليا دينية ، وفي نفس الوقت تأكيد ضمني برئاسة الرسول على الدولة المدينة سياسياً .

٥ ـ أكدت الصحيفة تضامن المسلمين والمؤمنين ، وتماسكهم أمام خطر ما خارجي يهدد سلامة دولة الرسول في المدينة . ولم تجز الصحيفة أن يثأر المؤمن من مؤمن آخر إذا قتل قريباً له كافراً .

٦ ـ أوضحت الصحيفة موقف المسلمين من يهود المدينة ، فقد تركت لهم حرية العقيدة ، وفي مقابل ذلك ألزمت اليهود بموالاة المسلمين وعدم التآمر عليهم .

رابعاً ـ تشريع الجهاد :

ظل رسول الله بعد أن هاجر إلى يثرب يؤثر الوسائل السلمية في الدعوة إلى الإسلام ، ولكن الظروف الجديدة وما نتج عن ذلك من

تبييت قريش في مكة النية للقضاء عليها ، دعت إلى تشريع الجهاد لتأمين دولة الإسلام في المدينة من خطر الـوثنيين ، ومن مؤامرات اليهود في داخل المدينة مع أعدائها في الخارج ، فنزل الوحي على النبي في المدينة يدعو المسلمين إلى القتال للذود عن أنفسهم . ثم نزلت آيات أخرى كان الغرض منها تحريك عواطف المسلمين إلى ناحية القتال لا من أجل العدوان أو الاعتداء على المشركين وإنما للدفاع عن أنفسهم والرد على عدوان المشركين عليهم ، وللحفاظ على الإسلام من الفتنة .

ـ ٢ ـ
السياسة الخارجية لدولة المدينة

١ ـ الجبهة الداخلية :

١ ـ موقف الرسول من يهود المدينة :

اعتنق نفر من أحبار اليهود في يثرب الإسـلام عن إيمان بعـد وصول النبي ﷺ إليها ، نذكر منهم عبد الله بن سلام ، وكان حبراً عالماً من سادة اليهود ، وقد رأينا أن رسول الله ، حرصـاً منه على إستمالة يهود المدينة واصطناعهم ، عمد إلى استرضائهم بـوسائـل منها كتاب الموادعة في الصحيفة وفيه منحهم حرية إقامة شعائرهم الدينية ، ومنها توجيه قبلة المسجد في الشهور الستة عشرة الأولى من الهجرة إلى بيت المقدس حيث هيكل سليمان ، ولكن اليهود كتموا استياءهم لأن النبي الذي بشرت به كتبهم لإنقاذهم من هوة البؤس والشقاء جاء عربياً من غير جنسيتهم وذريتهم ، فتظاهروا بالرضاء ثم

لم يلبثوا أن نقضوا عهدهم مع النبي ، وبدأوا يحاربونه بسلاح الدس والوقيعة فقد تظاهر فريق منهم (من بني قينقاع) بالإسلام وهم منافقون أو على سبيل التقية ، وأخذوا يحثون المنافقين من بني الأوس والخزرج على تكذيب النبي والسخرية من دينه .

وقد فطن رسول الله إلى المشاعر الخفية لليهود ، فأخذ يحترز منهم ويحذرهم ، وأوحى الله إليه بأن يصرف القبلة إلى الكعبة بعد ١٧ شهراً من هجرته إلى يثرب ، فجهر اليهود بعدائهم للنبي . وأخذوا يبثون بذور الخصام والشقاق بين المسلمين ، ويثيرون الفتن والخصومات القديمة بين الأوس والخزرج . واشتدت حملتهم على المسلمين بعد أن أسفرت موقعة بدر عنانتصار ساحق للمسلمين ، وقطعوا ما بينهم وبين النبي من العهد ، ثم استغل يهود بني قينقاع الصاغة حادثة سوقهم لتحدي السملمين ، فأمر رسول الله بحصارهم ، وأرغموا على التسليم والنزول على حكمه وقضائه ، وانتهى الأمر بخروجهم عن المدينة .

ثم تجرأ يهود بني النضير على النبي بعدما أصاب المسلمين في وم أحد ووقعي الرجيع وبئر معونة ، وحاولوا قتله ، وأخذوا يعدون عدتهم لحصار طويل ، فبادر النبي بمحاصرتهم ، واشتبك المسلمون معهم في قتال عنيف ، طال حصار المسلمين لهم . فيئس اليهود من عونهم ، ونادوا بالصلح مع النبي ، فصالحهم على الخروج من المدينة ، فخرج يحيى بن أخطب النضري وسلام بن أبي الحقيق في جماعة من يهود خيبر إلى قريش بمكة التي تحمل لواء المعارضة للنبي لتحريضهم على مهاجمة المدينة . فلما أقنعوا قريشاً مضوا إلى غطفان وبني مرة وفزارة وأشجع وسليم وبني سعد وبني أسد

يحرضونهم على الأخذ بثأرهم ، وإعلانهم حرباً شاملة على محمد . ونجحت خطتهم في تحزيب الأحزاب على المسلمين في المدينة . فأعد المسلمون عدتهم ، وانتهى يوم الأحزاب أو الخندق بفشل ذريع ليهود خيبر وأنصارهم وكان بنو قريظة موادعين للرسول ولكنهم لم يلبثوا أن غدروا به . فلما رحلت الأحزاب ، عاد الرسول إلى المدينة وحاصر بني قريظة ، فلما طال عليهم الحصار لم يجدوا بداً من الاستسلام ، فأمر بهم الرسول فسيقوا جماعات إلى موضع سوق المدينة حيث حفرت لهم خنادق ، ثم أمر الرسول فضربت أعناقهم في تلك الخنادق . ثم قسم الرسول أموال بني قريظة بين المسلمين .

ولكن الخطر اليهودي على المدينة لم ينته تماماً طالما أن هناك فئات منهم تستوطن خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى انتظاراً لفرصة مواتية ، وتنتقم فيها من النبي وصحابته . ولذلك رأى النبي بعد عقد صلح الحديبية مع قريش أن يبدأ بغزو خيبر وما حولها ، فخرج إليها في المحرم من سنة ٧ هـ ، ثم صالحوه على حقن دمائهم ، فأقرهم النبي وعاملهم على الشطر من الثمر والحب ، أي مقاسمة على النصف . ثم بعث رسول الله إلى أهل فدك ، يدعوهم إلى الإسلام فصالحه رئيسها على نصف الأرض بتربتها ونصف نخلهم ، ثم عرج الرسول على وادي القرى فدعا أهلها إلى الإسلام فامتنعوا عن ذلك وقاتلوا ، ففتحها الرسول عنوة ، وعامل اليهود على نحو ما عامل أهل خيبر أما يهود تيماء فقد بادروا بمصالحة النبي بعد أن بلغهم دخوله في وادي القرى .

٢ ـ موقف النبي من منافقي الأوس والخزرج :

عندما قدم رسول الله إلى المدينة مهاجراً ، كان يتزعم الخزرج سيد منهم هو عبد الله بن أبي سلول العوفي ، كان مطاعاً في قومهُ ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام ، اضطر إلى الدخول فيه مرغماً كارهاً على نفاق وضغن .

والواقع أن وضع المنافقين كان غريباً ، فقد كانوا مسلمين ، ولكنهم دخلوا الإسلام عن غير إيمان وصدق ، ومن أشهر المنافقين من الأوس والخزرج زوي بن الحارث ممن بني عمرو بن عوف ، وجلاس بن سويد الصامت . ومنهم نبتل بن الحارث من بني لوذان بن عمرو بن عوف ، وهو الذي قال له رسول الله : « من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث » ، ومع أن المنافقين اعتنقوا الإسلام نفاقاً ، إلا أنهم لم يخونوا جيش المدينة كما فعل اليهود ، ولم يتصلوا بالعدو ، بل إن جمهوراً منهم اشترك في القتال يوم أحد وغيرها من الغزوات لا ذباً عن الإسلام وإنما حمية عن قومهم ودفاعاً عن بلدهم .

وكان النبي يستشير المسلمين جميعاً ـ وفي جملتهم المنافقين ـ في الأوقات التي تتعرض فيها المدينة لخطر خارجي .

ولم تزل شوكة المنافقين قوية بوجود اليهود ، ولم تضعف سطوتهم إلا بعد أن طهر رسول الله مدينته من اليهود .

ب ـ الصراع بين مكة والمدينة

(١) مرحلة السرايا الاستطلاعية :

اعتبر النبي قريش العدو الأول للمسلمين ، وكان يبعث السرايا لتعترض عير قريش في طريقها إلى الشام أو عند عودتها إلى مكة ، دون أن تشتبك معها في قتال أو تستولي على قوافلها . وكان سبب تسيير النبي لهذه السرايا ، مجرد التظاهر بقوة المسلمين ومضايقة قريش وموادعة القبائل النازلة في طريق القوافل والتحالف معها ، وتلقف أخبار قريش .

ثم خرج النبي ﷺ بنفسه في صفر على رأس ١١ شهراً من الهجرة بعد أن استعمل على المدينة سعد بن عبادة ، حتى بلغ الأبواء بقصد اعتراض عير قريش ، وغزا النبي ﷺ بعد ذلك غزوتين إحداهما غزوة بدر الأولى . أما العزوة الثانية فغزو ذي العشيرة من ناحية ينبع بين مكة والمدينة ، وذلك في جمادى الآخرة من الشهر ١٦ من الهجرة .

وأهم هذه السرايا على الإطلاق سرية عبد الله بن جحش المعروفة بسرية نخلة، لأنها مهدت لغزوة بدر العظمى، ويبدو أن الغرض الرئيسي من هذه السرية قليلة العدد استطلاع تحركات العدو والوقوف على أخبار قريش . ومضى عبد الله بن جحش في بقية أصحابه حتى نزل نخلة ، فمرت به عير لقريش ، فخرج إليهم عكاشة بين محصن من أصحاب عبد الله بن جحش وقد حلق رأسه حتى يوهم التجار القرشيين بأنهم جاءوا عماراً أو معتمرين ، ونجح عكاشة في خطته ، واطمأن تجار قريش ، فقيدوا ركابهم وسرحوها . وأجمعوا على قتل

من قدروا عليه منهم ، أما نوفل بن عبد الله فنجح في الإفلات منهم ، فاستاقوا العير والأسيرين وقفلوا إلى المدينة فلما قدموا على رسول الله ﷺ وقّف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك ؛ فأسقط في أيدي ابن جحش ورفاقه وعنفهم .

وانتهزت هذه الفرصة لإثارة الرأي العام العربي على المسلمين وإظهار المسلمين بمظهر المعتدين الذين استحلوا الشهر الحرام ، وتدخل اليهود في القضية بغية إشعال نار الحرب . وهكذا كانت سرية نخلة أول عزوة غنم فيها المسلمون ، وبدأ السملمون بعدها غزواتهم التي قاتلوا فيها أهل مكة .

ب ـ مرحلة الغزوات :

فقد أيقن النبي بعد أن رأى محاولة مكة استثارة قبائل العرب عليه عقب سرية نخلة بأن سياسة حقن الدماء غير مجدية ، كما أن قريش أيقنت هي الأخرى بالخطر الذي تمثله دولة الرسول على تجارتها ما بين الشام ومكة ، ثم عزم الرسول عزماً على أن يقف من قريش موقفاً صارماً . ثم خرج في ٨ من رمضان سنة ٢ للهجرة في ٣١٩ رجلاً . إن الأنصار اشتركوا في هذه الغزوة لأول مرة ، ويرجع السبب في عدم اشتراكهم في السرايا السابقة إلى أنهم اشترطوا على أنفسهم يوم بيعة العقبة الكبرى أن يحموا النبي ما دام في المدينة .

أخذ أبو سفيان بن حرب حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان عن تحركات المسلمين ، فأبلغ أن محمداً قد استنفر المسلمين للعير ، فحذر عند ذلك وسيّر رجلاً إلى مكة يستنفر قريش إلى أموالها ويخبرهم أن محمداً قد تعرض لها في

أصحابه ، ومضى أبو سفيان إلى مكة من طريق غير الطريق المألوفة ، وأقبلت قريش بعدّها وعديدها بين التسعمائة والألف ، فنزلت بالعدوة القصوى . وكان أبو سفيان قد وصل بعيرة إلى مكة ، فأرسل إلى قريش ينهاهم عن المضي إلى بدر لمحاربة المسلمين ، فإن هذه العير والرجال والأموال قد وصلت سالمة ، ولكن أبا جهل أبى أن يعود قبل أن يرد بدراً حتى تسمع بهم العرب فَيَهَابُونهم .

أما المسلمون فقد خرجوا وفي مقدمتهم النبي ﷺ في طلب عير أبي سفيان دون أن يكون في نيتهم القتال ، فلما وافى النبي وادي ذفران أتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا عيرهم ، فاستشار القوم فأيدوه جميعاً ووافقوه على القتال ، ونزل قريباً من بدر . وبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ونفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عن قريش ، فأدرك النبي ﷺ أن العدد يتراوح بين ٩٠٠ وألف .

كان موقف المسلمين حرجاً ، فهم قد خرجوا في قلة عدد ليواجهوا حامية أقل منهم عدداً ، على غير استعداد مسبق للقتال ، ففوجئوا بخروج قريش لهم ، ولم يكن هناك مناص من القتال ، وقف المسلمون جميعاً صفاً واحداً ، فاطمأنت نفس رسول الله . ثم استجاب لمشورة الحباب بن المنذر بن الجموح الذي كانت له معرفة واسعة بالموضع ، في أن ينزل المسلمون من بدر منزلاً أقرب إلى مياهها ويبنوا حوضاً على البئر الذي نزلوا عليه ويملأوه بالمياه ، وبذلك يضمنون لأنفسهم السيطرة على مياه بدر والتحكم فيها وحرمان قريش منها .

ثم ارتحلت قريش وأرسلوا رجلاً منهم ليتسقط الأخبار فأبلغهم أنهم ثلاث مائة رجل . فنزل رسول الله بالعدوة الشمالية ، بينما نزل المشركون بالعدوة القبلية . وكان مع المسلمين ثلاثة ألوية ، أحدها لواء المهاجرين ولواء الخزرج ولواء الأوس، وكان مع قريش أيضاً ثلاثة ألوية . ثم خطب النبي في أصحابه ليرغبهم في الأجر ويحثهم على القتال ، وبدأت الموقعة في ١٧ من رمضان بمناوشات صغيرة . انهزمت قريش هزيمة ساحقة ، وقتل من أشرافها وساداتها سبعون رجلاً ، وأسر من المشركين سبعون رجلاً اختلف المسلمون في قتلهم أو تقبل فدائهم ، فأعرض النبي عن قتلهم ، وعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء باستثناء رجلين منهم أمر النبي بقتلهما بسبب اضطهادهما للمسلمين في مكة .

وكان من نتائج موقعة بدر أنها عززت مكانة البي في المدينة وأعلت كلمة الإسلام فدخل في الإسلام بعدها كثير من المشركين . ومن نتائجها أيضاً أنها أضعفت شوكة اليهود والمنافقين، فبفضلها وضعت قواعد ثابتة لتوزيع الغنائم والأنفال وتنظيم الفداء عن الأسرى .

أما قريش فقد عز عليهم أن يهزموا ، وأخذوا يعدون العدة لمحو عار هزيمتهم على أيدي المسلمين في بدر ، فأخذت تتصل بالقبائل لتستنفرها على المسلمين ، وتمكنت في خلال عام كامل من إعداد جيش كثيف يتكون من ثلاثة آلاف ثم خرجت قريش برجالها ونسائها ، في شوال سنة ثلاث للهجرة ، فنزلوا بقرب أحد على شفير الوادي تجاه المدينة . أما النبي ﷺ فخرج في ألف من أصحابه ،

ولما نشب القتال ، أبلى المسلمون بلاء حسناً وقاتلوا قتالاً شديداً ، حتى انهزمت قريش ، فأيقن الرماة بانتصار المسلمين ، ونهضوا يطلبون الغنائم تاركين الرمى على الأعداء ، فخالفوا بذلك ما أمرهم به الرسول ، ثم كر المشركون حتى وصلوا إلى قرب موضع الرسول ، وجرح رسول الله ﷺ في وجهة الكريم ، وأسفرت المعركة عن هزيمة المسلمين ، وقتل منهم فيها ٧٤ ، من بينهم حمزة بن عبد المطلب وعبد الله ابن جحش . وأسرفت قريش في إظهار حقدها على المسلمين ، وبلغ الحقد بهند بنت عتبة على حمزة بن عبد المطلب درجة لا مثيل لها من الغلو الجنوني.

عاد الرسول إلى المدينة ، وطرد منها بني النضير من اليهود الذين حاولوا الغدر به . ثم سعت قريش إلى تكوين حلف كبير يضم العناصر المعارضة للرسول ، وزحفت إلى المدينة في العام الخامس للهجرة ، فأقام الرسول خندقاً حصن به الجانب الشمالي من المدينة . ولكن قريش وحلفائها لم يستطيعوا دخول المدينة ، وكانت قد نزلت بمجتمع السيول من بئر رومة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم . أما النبي ﷺ فقد خرج في تسعمائه فقط .

أحاطت قريش وأحباشها ومن تبعها بالمسلمين من كل ناحية ، وفي نفس الوقت نقض كعب بن رئيس بني قريظة اليهود عهده مع رسول الله ، وأصبح المسلمون بين عدوين داخلي وخارجي . ولما اشتدت الحال بسبب طول أمد الحصار ، رأى النبي أن يصطنع الحيلة في تمزيق الحلف بين قريش وأحابيشها وغطفان واليهود .

تعرض الأحزاب لعاصفة عاتية كفأت قدورهم وآنيتهم وأرغمتهم

على التفرق والعودة من حيث أتوا . ومنذ غزوة الخندق استنفـدت قريش كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة للقضاء على دولة الرسول بالمدينة ، كما استنفدت كل طاقاتهـا وإمكانـاتها الاقتصـادية ، في محاربته مضحية وذلك بهيبتها وتجارتها . وبادر رسول الله بتجريـد قريش من قوتها ، فغزا غزوتين بعد الخندق إحداهما غزوة بني لحيان والثانية غزوة بني المصطلق من الأحابيش حلفاء قـريش ، ثم عزم رسـول الله على قصد مكـة معتمراً في ذي القعـدة من نفس العام السادس للهجرة ، وكان على يقين من أمر واحد هو أن قريش ستمنعه من أداء العمرة ، ولكنه كان يسعى من وراء ذلك إلى إظهار قريش بمظهر المعتدي الذي يرفض السلام ويصد عن بيت الله من جاء يعظمه ، كما كان يسعى أيضاً إلى الإفصاح عن احترام الإسلام للكعبة والبيت الحرام وتعظيمه للحج والعمرة أمام قبائل العرب جميعاً حتى يدركوا جوهر هذا الدين الحنيف .

لذلك خرج رسول الله بمن معه في عدد يتراوح ما بين ١٣٠٠ ، ١٥٠٠ وليس معهم سلاح إلا السيوف في أغمادها . وعندئذٍ أدركت قريش أن مناصبة المسلمين العداء سيؤدي إلى سفك مزيد من الدماء دون جدوى فأرسلت سهيل بن عمرو في وفد من قريش لمفـاوضة النبي ﷺ في الصلح . وتم الاتفـاق أخيراً بين قـريش والنبي على الشروط الآتية :

١ ـ أن ينصرف الرسول عامـه ذلك ، على أن يقبـل في العام التالي مع أصحابه بلا سلاح حاشا السيوف في القرب فقط ، فيقيم بها ثلاثة أيام .

٢ ـ أن يتصل الصلح بين المسلمين وكفار قريش عشرة أعـوام

يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً .

٣ ـ من أراد أن يدخل في حلف محمد من القبائل دخل ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل .

٤ ـ من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً رد إلى الكفار ، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً لم يرد إلى المسلمين .

والواقع أن رسول الله كسب بهذا الصلح كسباً سياسياً ، فقد أصبح من حقه أن يدخل مكة في العام المقبل ، كما أتيح له أن يضم إلى جانبه كثيراً من قبائل العرب وفي ذلك تدعيم لموقفه وإضعاف لموقف قريش ، زد على ذلك أنه بفضل فترة السلم الطويلة ، التي يحددها صلح الحديبية بعشر سنوات ، يمكنه خلالها أن يقضي نهائياً على قوة اليهود في جزيرة العرب .

ج ـ توجيه الدعوة إلى الإسلام في داخل جزيرة العرب وخارجها :

اتجه النبي إلى اصطناع سياسة خارجية ترمي إلى نشر الدعوة الإسلامية خارج دولته في المدينة ، فأرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وكان أول رسول وجهه رسول الله هو عمرو بن أمية الضمري بعثه إلى النجاشي . وبعث النبي ﷺ دحية بن خليفة الكلبي ، أحد رسله الستة إلى هرقل ، قيصر الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي أحد الرسل الستة إلى كسرى ، وبعث حاطب بن أبي بلعته اللخمي أحد الرسل الستة إلى المقوقس نائب هرقل على مصر في الاسكندرية يدعوه إلى الإسلام .

أما الرسول الخامس وهو شجاع بن وهب الأسدي فقد بعثه رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر الغساني أمير غسان يدعوه إلى

الإسلام . وبعث الرسول السادس وهو سليط بن عمرو العامري إلى هـوذة بن علي الحنفي أمير اليمـامة يـدعـوه إلى الإسـلام ، وبعث الحارث بن عمير بكتاب إلى صاحب بصرى ، فلما نزل مؤته اعترضه أحد أمراء الغساسنة ، ولـم يقتل لرسول الله رسول غيره ، وكان قتله سبباً في البعث الذي سيره النبي ﷺ إلى مؤتة .

كذلك وجه الرسول الله رسلاً آخرين إلى سائر قبائل العرب في الجزيرة العربية ، وتعتبـر رسائـل النبي إلى أمراء القبـائل والملوك المجاورين لبلاد العرب نقطة تحول هامة في سياسة دولة الـرسول الخارجية ، وقد نجحت هذه السياسة ومهدت لتوحيد النبي لسائـر العرب في عام الوفود .

ـ ٣ ـ
مقدمة الفتوحات الإسلامية

١ ـ غزوة مؤتة :

أعد رسول الله جيشاً ضخماً عدته ثلاثة آلاف مقاتل على رأسهم زيـد بن حارثـة ، وسار جيش المسلمين حتى بلغ معـان من أرض الشام ، وهناك بلغهم أن هرقل ملك الروم قد نزل أرض مآب وهي أرض البلقاء ، في مائة ألف من الروم ومائة ألف أخرى من نصارى الشام . فأقـام المسلمون في معـان ليلتين يفكرون فيمـا يصنعونـه فشجعهم عبد الله بن رواحه ، فزحفوا إلى مؤتة واشتبك الفريقان في القتـال ، كـان أول اشتبـاك جـرى بين المسلمين وبين الغسـاسنـة والروم ، وإذا كانت موقعة مؤتة انتهت بهزيمـة لجيش المسلمين ،

فإنما اعتبرها رسول الله جولة تعقبها كرة ، فقد كان لها نتائج أدبية خطيرة إذ فتحت المجال أمام القبائل الضاربة في الشمال للدخول في الإسلام .

ب ـ فتح مكة :

كانت خزاعة قد دخلت في عهد النبي ﷺ مؤمنها وكافرها إذ كان عبد المطلب وخزاعة حلفاً قديماً ، كما أصبح بنو بكر بن عبد مناة في عقد قريش وعهدها . وكانت بين خزاعة وبكر ثارات قديمة في الجاهلية ، فلما دخلت خزاعة في عهد النبي بعد صلح الحديبية ، دخلت بكر بن عبد مناة في عهد قريش ، واستغل بنو الديْل من بني بكر بن مناة فرصة هذا الصلح وغفلة خزاعة وأرادوا إدراك الثأر القديم ثأر بني الأسود بن رزن ، فخرج نوفل بن معاوية الدِّيْلي بمن أطاعه من بني بكر وبيَّت خزاعة وهم على ماء لهم يقال له الوتير بأسفل مكة ، فاقتتلوا ، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح ، نقضاً للعهد الموقع يوم الحديبية ، ولذلك خرج قوم من خزاعة إلى المدينة حتى قدموا على رسول الله ، واستغاثوا به .

أما قريش فقد ندمت ، وأدرك شيوخها أنه لا بد من عمل شيء لتمكين الصلح والزيادة في مدته ، فأوفدوا أبا سفيان بن حرب لهذا الغرض ، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ، فلم يقابله النبي فعاد إلى مكة يجر أذيال الفشل والهوان .

ووعزم رسول الله على فتح مكة ، فأعد جيشاً كثيفاً عدته عشرة آلاف . وخرج من المدينة في العاشر من رمضان ، وتجمع المصادر على أن أبا سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام خرجوا من مكة

يتلقفون الأخبار ، كما تجمع على أن العباس بن عبد المطلب ، خرج مهاجراً وأنه لقي رسول الله في ذي الحُلَيْفة ، وعندما أسلم أبو سفيان في حضرة النبي ، فقال له رسول الله ﷺ : « من دخلَ دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » ، وبذلك أصبحت مكة مؤمنة على دماء أهلها وذراريهم وأموالهم ونسائهم ، إلا من قاتل أو استثني فقط .

ثم عاد أبو سفيان إلى مكة ليبلغ قومه . ولكن جماعة من شباب قريش صمموا على القتال ، وبدخول المسلمين مكة ، سقط معقل الوثنية في جزيرة العرب في أيدي المسلمين ، وغفا رسول الله عن عامة قريش، ثم طاف بالكعبة، وأمر بكسر الصور التي كانت منصوبة داخل الكعبة . وهكذا خرجت الدولة العربية الإسلامية من نطاق الدولة المدينة إلى نظام الدولة الكبيرة ، ولم يمض عام واحد حتى امتد سلطانها إلى جميع بلاد العرب .

ج ـ غزوة حنين والطائف :

فعندما بلغ فتح مكة هوزان صمموا على محاربة النبي قبل أن يشرع في الزحف عليهم . فخرجوا ومعهم أموالهم وماشيتهم ونساءهم وأولادهم ، ولما علم رسول الله بخروجهم أعد جيشاً من المسلمين ، وخرج في اثني عشر ألفاً . اجتمع الجيشان في حنين ، فانهزمت هوزان . ثم أرجأ رسول الله توزيع الغنائم ورد النساء والذرية إلى هوزان إلى حين عودته من الطائف ، فقد عزم ﷺ أن يمضي من حنين إلى الطائف مباشرة حتى يفتحها . فلما وصل رسول الله بالمسلمين إلى الطائف رمتهم ثقيف بالحجارة والنبال ، والحديد

المحمي ، وأقام رسول الله حصار الطائف خمس عشرة ليلة ثم رحل عنها إلى الجعرانة حيث رد على هوزان أبناءهم ، ثم اعتمر رسول الله من الجعرانة إلى مكة . ولم يلبث بنو ثقيف أن أدركوا عبث مناوءتهم للرسول ، فبعثوا إليه وفداً ، فصالحهم الرسول على أن يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من الأموال .

د ـ غزوة تبوك وتوحيد جزيرة العرب :

تعتبر غزوة تبوك وما يليها من شمال الحجاز والجرباء آخر غزوة غزاها النبي ﷺ بنفسه . ففي رجب من العام التاسع للهجرية عزم رسول الله على تجهيز جيش بقيادته لغزو المناطق الشامية منذ أن بلغته الأنباء بقيام صاحب تبوك بحشد جموع كبيرة . ثم خرج رسول الله حتى وصل إلى تبوك ، فلم يلق بها كيداً ، وصالحه أهلها على الجزية . وأقام بها عشرين ليلة ، أتاه إليها وهو بها يحنة بن رؤبة صاحب أيلة ، فصالحه كما قدم عليه وهو بتبوك أهل أذرح فصالحهم ، وصالح أهل الجرباء وأهل مقنا اليهود.

وبعث رسول الله خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك الكندي بدومة الجندل ، ويذكر المؤرخون أن خالد تمكن من أسر أكيدر وقدم به على رسول الله ، فعفا عنه عندما أعلن إسلامه .

ولما حان موعد الحج ، عهد رسول الله ﷺ إلى أبي بكر بإمارة الحج . ثم أصدر بيان براءة ، وفي هذا البيان نبذ عهوده التي كان قد عقدها مع القبائل التي وادعها والتي لم تدخل بعد في الإسلام ، ومعنى هذا أن الله بريء من المشركين وأنه لا عهود بينهم وبين الدولة الإسلامية ، وهو لذلك يمهلهم فرصة أربعة أشهر للدخول في

الإسلام وفي الدولة الإسلامية أو يعتبروا في نظر الإسلام خارجين على الدولة الإسلامية ووجبت محاربتهم .

أما فيما يتعلق بالنصارى واليهود فعليهم أن يعلنوا خضوعهم للدولة العربية الإسلامية عن طريق الجزية . وكان بيان براءة بمثابة إنذار وجهه رسول الله ﷺ إلى المشركين في موسم الحج ، وهدف بيان براءة هو ضم جميع قبائل العرب في شبه الجزيرة إلى الدولة العربية الإسلامية عن طريق إعلان تحولها إلى الإسلام وخضوعها لدولة الإسلام ، وعلى هذا النحو بدأت وفود القبائل العربية تصل تباعاً بعد فترة قصيرة من إذاعة هذا البيان، معلنة خضوعها للإسلام ودخولها في طاعة الدولة العربية ، كان رسول الله ﷺ يرسل مع هذه الوفود معلمين مهمتهم تعليم هذه القبائل قواعد الإسلام وفي نفس الوقت تحصيل الصدقات منهم .

وهكذا لم يحل العام العاشر للهجرة حتى كانت كل جزيرة العرب دولة عربية إسلامية موحدة ، وعرف العام التاسع بعام الوفود ، ففيه تواترت وفود العرب تعلن إذعانها للإسلام .

وهكذا بدأت صفحة جديدة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية ، التي أصبحت تضم جميع قبائل العرب باستثناء مناذرة الحيرة وغساسنة جلق والجابية ، وهؤلاء الغساسنة بوجه خاص كانوا يشكلون خطراً ماثلاً على الدولة العربية فقد عزم النبي ﷺ على إنفاذ حملة جديدة لتأديبهم وأعد هذه الحملة وجعل على قيادتها أسامة بن زيد بن حارثة ، ولكن لم يقدر لهذه الحملة أن تحقق مهمتها في حياة الرسول ، وقدر أن يتم ذلك في بداية خلافة أبي بكر .

ثم حج النبي ﷺ حجة الوداع في ذي القعدة من العام العاشر، وشهد انتصار الإسلام على الوثنية . ولما أدى النبي ﷺ مناسك الحج على النظام الإسلامي ، وخطب في المسلمين في عرفات خطبته الأخيرة ، عاد إلى المدينة في ١٤ من ي الحجة سنة ١١ هـ ثم مرض مرضه الذي مات فيه يوم ٢٧ صفر وهو في بيت ميمونة أم المؤمنين ، وطال مرضه ﷺ اثني عشر يوماً ثم قبض يوم الاثنين لاثنتي عشرة من ربيع الأول بعد أن أكمل رسالته ، وأتم نعمته على المسسلمين أو كما قال الله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ .

البابُ الثاني
عصر الخلافة الراشدة

الفصل الثالث : الأخطار التي تهددت الدولة العربية الإسلامية بعد وفاة النبي صلى الله علي وسلم .

الفصل الرابع : الفتوحات الإسلامية .

الفصل الخامس : الفتنة الكبرى أو فتنة الكبرى أو فتنة الأمصار .

الفصل الثالث

الأخطار التي تهددت الدولة العربية الاسلامية بعد وفاة النبي ﷺ

ـ ١ ـ

التنازع على الخلافة

١ ـ نظام الخلافة :

الخلافة هي نيابة صاحب الشرع (النبي ﷺ) في حفظ الدين وسياسة الدنيا ، بمعنى أن الخليفة ، يجمع بين سلطتين : دينية باعتباره إماماً للمسلمين ويحمي الدين ودنيوية لأنه ينظر في مصالح المسلمين الدنيوية.

والخلافة نظام مستحدث حتمته الظروف بعد وفاة النبي ﷺ دون أن يعين للمسلمين خليفة لهم ، ليترك الأمر شورى للمسلمين خاصة وأنه لم يخلف ولداً ذكراً يستخلفه من بعده . وهكذا وجد المسلمون أنفسهم في سقيفة بني ساعدة بمدينة الرسول يبايعون أبا بكر بالخلافة ، ويشترط في الخليفة خمس شروط هي : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء ، وأخيراً النسب القرشي ، أن اشتراط القرشية إنما قصد به دفع التنازع بين المسلمين، ولقد تمسك المهاجرون بهذا الشرط في سقيفة بني ساعدة ، وكان له أثره الكبير في تحرج موقف الأنصار ،وقد استمرت شروط الخلافة سارية في عصر الخلفاء الراشدين ، وعلى الرغم من أن أبا بكر هو الذي استخلف عمر بن الخطاب إلا أنه لم يقطع بهذا الاستخلاف إلا بعد

أن طلب مشورة أولى الرأي . وكان الخليفة يلقب خليفة رسول الله لأنه يخلف النبي في أمته ، وقد نهى أبو بكر أن يطلق عليه المسلمون لقب « خليفة الله » ، أما عمر بن الخطاب فقد لقبه الناس لقبه الناس بلقب « خليفة خليفة رسول الله » ، ثم استثقلوا هذا اللقب ، واتفق على تسمية عمر بأمير المؤمنين . ثم تحول نظام الخلافة منذ قيام الدولة الأموية إلى ملك استبدادي قائم على النظام الوراثي ، على غرار ما كان معروفاً عند الفرس والروم ، واستحالت الخلافة منذ ذلك الحين إلى ما يشبه النظام الملكي . ثم تطور نظام الخلافة في العصر العباسي فأصبح الخليفة يحكم بتفويض من الله لا من الشعب على نقيض ما كان متبعاً ، ولذلك بدأت الألقاب الخلافية المضافة إلى الله تظهر وجاراهم خلفاء الفاطمية في ذلك .

ب ـ مشكلة اختيار خليفة لرسول الله :

لم يتم اختيار أبي بكر خليفة لرسول الله إلا بعد نزاع كبير نشب بين المهاجرين والأنصار كاد يفتت وحدة المسلمين ، فقد انقسم المسلمون عند وفاة الرسول إلى ثلاثة تكتلات أو فرق لكل منها مرشحها :

الفرقة الأولى من الأنصار الذين أيدوا اختيار سعد بن عبادة الخزرجي ، والفرقة الثانية من المهاجرين ، وقد أجمعوا في نهاية الأمر على اختيار أبي بكر ، أما الفرقة الثالثة فكانت تتألف من الهاشمية وفئة من الأمويين بالاضافة إلى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، وكانت تميل إلى اختيار علي بن أبي طالب خليفة لرسول الله .

أما الفرقة الأولى وهي الأنصار ، فكانوا يرون أنهم أحق بالخلافة فهم أهل الإيواء . أما الفرقة الثانية ، وهم المهاجرون ، فقد أيدوا أبا بكر لاعتبارات كثيرة ، فقد خصّهم الله بتصديق رسالة النبي ﷺ . وأما الفرقة الثالثة ومعظمها من الهاشمية فقد أيدت علي بن أبي طالب لأن أباه حمى النبي عندما اضطهدته قريش ، ثم إنه بالاضافة إلى ذلك ابن عم رسول الله وزوج ابنته فاطمة للزهراء وأخ النبي كهارون من موسى .

فعندما بلغ الأنصار نبأ وفاة النبي اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة زعيم الخزرج وسيدهم ، أما علي بن أبي طالب وقومه فقد اعتزلوا في بيت فاطمة ، وحدث أن أقبل رجل إلى أبي بكر وعمر وأبلغهما باجتماع الأنصار ، فبادر الشيخان بالتوجه إلى الأنصار قبل أن يتفاقم الأمر فلقيا أبا عبيدة بن الجراح ، فانطلق معهما .

فنهض عمر بن الخطاب ونادى بأحقية أبي بكر بالخلافة لعوامل منها : أنه صاحب الغار ثاني إثنين ، ومنها أن رسول الله استخلفه على الصلاة بالمسلمين مقدماً إياه على سائر الصحابة . ويبدو أن الأنصار اقتنعوا بما ساقه عمر بن الخطاب من حجج ، فاقترحوا أن يتولى الخلافة اثنان واحد بعد الآخر : أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار ، لكن هذا الرأي لم يلق قبولاً حسناً من المهاجرين . واحتدم الجدل والنقاش بين المهاجرين والأنصار ، وكاد يتأزم الموقت لولا أن قام بشير بن سعد ، فبايع أبا بكر فلما رأى الأوس قيام بشير بمبايعة أبي بكر بادروا بمبايعته ، فأقبل الخزرج على أثر ذلك يبايعون أبا بكر .

أما علي بن أبي طالب فقد امتنع عن مبايعة أبي بكر هو وجماعة من الهاشمية والزبير بن العوام ، وتخلفوا في بيت فاطمة . فخرج إليهم عمر بن الخطاب في جماعة من الصحابة وأرغموا بني هاشم والزبير على مبايعة أبي بكر . ثم استقدم عليّ إلى أبي بكر وطلب منه أن يبايعه ، فامتنع بحجة أن أبا بكر اغتصب حقه في خلافة النبي ، وأنه استند في مقالته للأنصار على أن الخلافة لا بد أن تحصر في عشيرة رسول الله . وحاول الصحابة إكراه علي على مبايعة أبي بكر ، فبكت فاطمة ، وزجرت أبا بكر وأعلنت سخطها عليه وعلى عمر . ولم يبايع علي أبا بكر بالخلافة إلا بعد أن توفيت فاطمة، واختلفوا في الفترة التي امتنع فيها علي عن مبايعة أبي بكر ، ولكن معظم مؤرخي العرب أجمعوا على ستة أشهر . وعلى الرغم من اعتراض عليّ على مبايعة أبي بكر في أثناء هذه الفترة ، فإنه لم يرض بمبايعة فريق من الناس له شخصياً إشفاقاً على المسلمين من الفتنة والانقسام .

ـ ٢ ـ
حركة الردة

١ ـ دوافعها :

لما توفي رسول الله ﷺ عظمت بوفاته فجيعة المسلمين ومصيبتهم ، وانفسح المجال أمام المنافقين وأعداء قريش من العرب لإظهار ما يخفون من نوايا انفصالية ونزعات ، وظهرت الحركة المعروفة بالردة . وساعد على تأجج نار الردة ما بلغ من تنازع المهاجرين والأنصار على الخلافة ، وقيام أبو بكر بتحقيق رغبة

الرسول في إنفاذ حملة أسامة بن زيد إلى الجبهة الشمالية، وما سببه ذلك من ضعف القوة الدفاعية عن المدينة.

فإن كثيراً من قبائل العرب لم تعترف بأبي بكر خليفة للنبي ﷺ اعتقاداً منهم بأن الإسلام قضي عليه بوفاة الرسول ، وقام عدد من قبائل العرب بخلع سلطان المدينة، وطرد عمال الصداقات ، للتخلص من الزكاة والإكتفاء من الإسلام بالصلاة ، بينما أرتد عدد كبير والتفوا حول عدد من المتنبئين . وقد ظهرت بوارد هذه الحركة في أواخر أيام رسول الله ، ثم احتدمت نارها بعد وفاته . ودوافع هذه الحركة متعددة نجملها فيما يلي :

١ ـ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم :

كان المسملون قد ربطوا بين شخص محمد وبين ما حققه للعرب من مكاسب دينية واجتماعية وسياسية ، فلما توفي أحدثت وفاته اضطراباً عنيفاً ولم يصدق الجمهور الأعظم منهم نبأ وفاته ، حتى أقبل أبو بكر ثم خطب في الناس فقال : « أيها الناس : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » .

وأحس المسلمون بعد وفاة الرسول بفراغ هائل ، وتشككوا في قدرة خليفته على ملئه.

٢ ـ ضعف سلطان المدينة فيما وراء دائرة الحجاز :

كان للحملة الكبرى التي وجهها الرسول بقيادته إلى تبوك في العام التاسع للهجرة ، وهي حملة لم تشهد بلاد العرب لها مثيلاً من

قبل ، أعظم الأثر في بسط سلطان المدينة على معظم قبائل العرب في شبه الجزيرة ، على أن خضوع قبائل الأطراف لسلطان المدينة لم يكن عميقاً في جذوره ، وعلى الرغم من أن رسول الله لم يحد من الشعور بالاستقلال الذي كانت هذه القبائل تنعم به ، كل ذلك لم يمنع هذه القبائل من أن تكتم سخطها على هذا الوضع وأن تتحين الفرصة المناسبة لقطع ما كان يربطها سياسياً بالمدينة ، فتطرد عمال الصدقات ، وتنبذ الطاعة ، وتتنصل من التبعية .

ولم يكن رسول الله يشترط عليهم للإسلام سوى تطبيق قواعده وهي النطق بالشهادتين وأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم وأخيراً الحج لمن تيسر له القيام به ، فلما توفي ﷺ تجرأوا على إعلان خروجهم .

٣ ـ انبعاث العصبيات القبلية :

لم يكن من السهل على قبائل العرب التي دخلت في الإسلام وأعلنت خضوعها لدولة الرسول في المدينة منذ العام الثامن للهجرة أن تنسى في أمد قصير (لا يزيد عن ثلاث سنوات) عصبياتها القبلية ، ولم تكن لترضى بتفوق قريش وزعامتها عليها .

ولم تكن حركة الردة في جوهرها حركة دينية بقدر ما كانت في الواقع حركة سياسية وضحت فيها العصبيات القبلية ، وكانت ردة الأسود العنسي باليمن أول ردة في الإسلام على عهد وسول الله ، فادعى النبوة ، ولكن حركته أخمدت قبل وفاة الرسول ، كذلك تنبأ طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد في حياة الرسول ، واستفحل أمره بعد وفاته ، وتنبأت أيضاً امرأة من بني يربوع تدعي سجاح بنت

الحارث بن سويد التميمية ، وكانت تسعى لغزو المدينة فطلبت من مالك بن نويرة اليربوعي أن يوادعها ، فردها عن غـزوها واجتمعت بمسيلمة الذي ادعى النبوة في اليمامة .

ومن المرتدين من كان يسعى إلى استرجاع ملك ، كبني ربيعة بالبحرين . حركة الردة حركة سياسية ، كانت تستهـدف الاستقلال عن سلطان المدينة بدليل أن العدد الأعظم من المـرتدين اعتبـروا الزكاة نوعاً من الإتاوة .

ب ـ موقف أبي بكر من المرتدين :

صمم أبو بكر الصدّيق منذ اليوم الذي بويع فيه بالخلافة على أن ينهج نهج رسول الله في سبيل نشر الإسلام وتوحيد أمة العرب فقد آلى على نفسه ألا يتساهـل في أمور الـدين ولا ينحرف عن سـواء السبيل ، عندما ظهرت حركة الردة ، صمم على محاربة المرتدين وعـدم مهادنتهم في الـوقت الذي أنفـذ حملة أسامـة بن زيـد إلى مقصدها تلبية لأمر رسول الله قبل وفاته .

وكان طليحة بن خويلد الأسدي الذي تنبأ في أواخر حياة الرسول قد كثر جمعه واستفحل أمره ، وتعصب له قومه على غير إيمان به ، فأقام فريق منهم في ذي القصبة التي تقع على مسافـة قريبـة إلى الشرق من المدينة ، بينما عسكر فريق آخر من بني مرة في الإبريق ، وأرسلوا إلى المدينة وفداً منهم يبلغ أبا بكر باستعدادهم لبذل الصلاة ومنع الزكاة . وأشار جماعة من المسلمين على أبي بكر بقبول مـا عرضه المرتدون عليه، عزم أبو بكر عزماً أكيداً على محاربة المرتدين ومانعي الزكاة ، إذا اعتبرهم مـارقين متمردين على الـدولة العـربية

الإسلامية . فعمل على تدعيم الدفاع حول المدينة ، أغار المرتدون من غطفان وبني أسد على المدينة ليلاً ، ولكن الغارة ووجهت بمقاومة باسلة ، وانتهت بالفشل . ولم ينتظر أبو بكر أن يعادوا الكرة ، فبادر بالزحف نحو العدو أثناء الليل ، وفي هذه الأثناء وصل أسامة بن زيد من حملته ظافراً ، وزحف أبو بكر بنفسه في جمع من المسلمين فنزل بالأبرق ، فقاتل من به من المرتدين ، وتغلب عليهم وعاد إلى المدينة ، وعقد الألوية لأحد عشر أميراً ، أمر كل منهم باستنفار من مر به من المسلمين من أهل القوة .

ونجحت بعوث أبي بكر في قمع حركة الردة على نحو لم يكن في الحسبان ، وفر طليحة مع امرأته إلى بلاد الشام ، وأسلم حين بلغه أن أسداً وغطفان وعامر قد أسلموا ، أما بنو عامر فقد أقبلوا بعد هزيمة أهل بزاخة إلى خالد ابن الوليد يعلنون إسلامهم ، ثم زحف خالد نحو البطاح وبها مالك بن نويرة، فبث السرايا، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من بني ثعلبة بن يربوع ، فأمر بحبسهم في ليلة بادرة ، فظن جنده أنه أراد قتل الأسرى ، فقتلوهم . فلما علم خالد بما حدث أسف لمقتل مالك ، وتزوج أم تميم امرأته ، وكان قتل مالك من العوامل التي أثارت عمر بن الخطاب على خالد ابن الوليد، فاتهمه أنه قتل رجلاً مسلماً وتزوج امرأته، وعلى الرغم من أن أبا بكر تجاوز عن خالد، فإن عمر بن الخطاب لم ينس له فعلته.

ثم سار خالد بجموعه إلى مسيلمة الكذاب ، واشتبك المسملون بقيادة خالد مع بني حنيفة بقيادة مسيلمة ومجّاعة بن مرارة في عقرباء ، وانتهت المعركة بهزيمة بني حنيفة ، ويعتبر خالد أهم قواد

المسلمين أبطال حرب الردة إذ قضى حركة مسيلمة وغرس الهلع والذعر في قلوب المرتدين. وبالقضاء على كل من طليحة ومسيلمة سهل على المسلمين القضاء على المرتدين في الأطراف.

وفي البحرين تمكن العلاء بن الحضرمي من إيقاع الهزيمة بربيعة، واشترك خالد مع العلاء في افتتاح الخط واستنزال من بها من فلول ربيعة، وقتل المنذر بن النعمان. وهكذا استطاع أمراء الجند الذين سيّرهم أبو بكر لقمع حركة الردة أن يقضوا على المرتدين في أمد قصير، وتحقق بذلك هدف أبي بكر، فما يكاد المسلمون يقمعون حركة الردة حتى يندفعون إلى الحدود الشمالية مع الروم ومع الفرس لتأديب الغساسنة والمناذرة، ومن العجيب أيضاً أن يشترك في الجهاد رجل يدعي النبوة وكان رأساً من رؤوس الردة هو طليحة الأسدي الذي أبلى بلاء حسناً في فتوح العراق وفارس.

الفصل الرابع
الفتوحات الاسلامية

ـ ١ ـ

الدافع الرئيسي والعوامل المساعدة

كان من الطبيعي وقد تمكنت المدينة من قمع حركة الردة، وبسطت نفوذها على سائر أنحاء الجزيرة، أن يستشعر العرب المسلمون بكيانهم وقوميتهم، ويتطلعوا إلى العالم المحيط بهم خارج الجزيرة العربية.

الدافع الاقتصادي :

يرى بعض المؤرخين أن الفتوحات الاسلامية لا تعدو أن تكون موجة سامية إلى بلاد الهلال الخصيب شأنها في ذلك شأن الموجات السامية القديمة . ويعتقد أصحاب هذا الرأى أن هذه الموجات هي هجرات اقتصادية إلى المناطق الغنية الخصبة الواقعة إلى الشمال الشرقي والغربي من الحجاز ونعني بهامنطقة الهلال الخصيب ، نتيجة لتدهور الأحوال الاقتصادية في الجزيرة .

ونلاحظ أن المحاربين العرب حتى خلافة عمر بن الخطاب كانوا يعتمدون على الغنائم ، فلم يكن للجند عطاء على عهد الرسول وعلى أيام أبي بكر ، وإنما جرى تقسيم الغنائم خمسة أقسام : خمس منها لبيت مال المسلمين والأخماس الأربعة الأخرى توزع بالعدل على الجند . فليس لدينا من النصوص التاريخية ما يشير إلى قحط أصاب الجزيرة بالاضافة إلى أن الإسلام نظم الحياة الاجتماعية عند العرب ، وطبق نظام التكافل الاجتماعي بين طبقات المجتمع الاسلامي . حقيقي إنه تمت هجرات عربية سابقة على الاسلام إلى مناطق الهلال الخصيب ، ولكن الفتوح العربية الإسلامية تختلف عن الهجرات السابقة لأنها لم تتم نتيجة اضطرابات داخلية أو بسبب أزمات اقتصادية ، بدليل أن خالد بن الوليد تلقى وهو باليمامة أمر أبي بكر بالمسير إلى العراق أو بمعنى أصح إقليم السواد الممتد من دجلة والفرات حتى الخليج الفارسي ، أما فيما يختص بالشام فقد كان أبو بكر قد عقد لخالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام وذلك بعد أن انتقضت العرب في الجزيرة بعد وفاة رسول الله . ثم كان

يسكن في جنوب غربي العراق وجنوبي الشام قبائل عربية يمنية كانت قد استقرت في هاتين المنطقتين منذ عهد سابق على ظهور الإسلام وكانوا على اتصال اجتماعي واقتصادي وسياسي في بعض الأحيان مع عرب الجزيرة . وعلى هذا الأساس لا يمكننا أن نقبل التفسير السابق لظاهرة الفتح الإسلامي بدوافع اقتصادية.

دافع الجهاد :

ويرى فريق آخر من الباحثين ، أن حركة الفتوحات كان وراءها باعث عسكري ديني هو الجهاد ، فقد خرجت جيوش المسلمين وراء تيار إسلامي عربي ، وكان أبو بكر قد أوصى المسلمين يوم بايعوه بالخرفة بالجهاد في سبيل الله ، إن حملة أسامة التي جهزها الرسول لإنقاذها إلى جنوب الشام أكبر دليل على رغبته في التوسع خارج الجزيرة ، وأن كتبه إلى الملوك والأمراء المجاورين لبلاد العرب دليل واضح على رغبته في نشر الإسلام خارج الجزيرة . ويستند أصحاب هذا الرأي على آيات قرآنية تؤكد أن الله بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً ، ولم يكن تشريع الجهاد يعني نشر الإسلام في جميع أنحاء العالم عن طريق الحرب ، فقد ظهر الإسلام في زمن اشتدت فيه الاضطهادات الدينية في فارس وبيزنطة ، وفي الأقطار التابعة لهما؛ ، فأتاح الإسلام بمبادئه الكريمة الحرية والتسامح في البلاد التي كانت خاضعة للدولتين ، ولذلك حرص العرب الفاتحون على ترك أهل البلاد المفتوحة على دينهم ، ولم يرغموا أحداً على اعتناق الاسلام ما داموا يدفعون الجزية ، ولهذا السبب كان المسلمون إذا أقبلوا على أعدائهم من الروم

والفرس يعرضون عليهم أحد خصال ثلاث : إما الإسلام أو الجزية أو الحرب ، وإن عهود الصلح التي كتبها المسلمون تعبر تعبيراً صادقاً عن غلبة روح التسامح التي جرى عليها المسلمون الفاتحون . كذلك فتح شرحبيل طبرية صلحاً وهكذا وقف الإسلام من النصرانية في الشام موقف التحبب والود وآمنهم على عقائدهم وأموالهم ، كذلك صالح أبو عبيدة بن الجراح السامرة اليهود بالأردن وفلسطين ، ولم يكن في خطة المسلمين الفاتحين تكوين امبراطورية ، ولكن الظروف السياسية والعسكرية أرغمتهم على المضي قدماً في الفتوحات .

ونخرج من ذلك كله بأن الجهاد والرغبة في نشر الاسلام في العالمين الروماني والساساني عن طريق الحرب ، ولم يكن الدافع الرئيسي على الفتح ، وإنما يمكن اعتباره من العوامل المساعدة .

العامل القومي :

فقد رأينا فيما سبق أن ذكرناه كيف أن رسول الله ﷺ بدأ منذ العام السادس بعد الهجرة يطبق سياسة خارجية ترمي إلى نشر الإسلام في مجالات بعيدة ، وتوحيد شبه جزيرة العرب في ظل الدولة العربية الاسلامية ، فكتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام والاعتراف به ، غير أن الموقف العدائي الذي اتخذه شرحبيل بن عمرو الغساني ، كان سبباً رئيسياً في قيام النبي بتسيير حملة زيد بن حارثة إلى مؤتة مستهدفاً من ورائها تأديب الغساسنة . وعلى الرغم من أن موقعة مؤتة انتهت بهزيمة جيش المسلمين فقد اعتبرها رسول الله جولة تعقبها كرة، ثم كانت غزوة تبوك ولما تم

للرسول توحيد شبه جزيرة العرب ، وجه اهتمامه إلى تأمين الحدود الشمالية من أي اعتداء عسكري يقوم به الروم ، ولذلك أمر رسول الله بإعداد جيش لغزو أطراف الشام الجنوبية ، وأسند قيادة هذا الجيش إلى أسامة بن زيد بن حارثة . لم يتهيأ للنبي أن يشهد خروج هذه الحملة إلى غايتها ، فقد توفي وأبى أبو بكر إلا أنّ يحقق رغبة رسول الله . فاتنفر المسلمين للقتال ووجه لفتح الشام البعوث والحملات .

أما بالنسبة للعراق فالأمر يختلف ، ذلك أن الذين بدأوا سياسة الاعتداء على الفرس ومناهضتهم جماعة من عرب بني شيبان وبني عجل فقد كانوا يغيرون على تخوم فارس بدافع من الشعور القومي ، وكان يدفعهم عاملان : عامل الانتقام من الفرس الذين ألوا ملوك الحيرة وعامل قومي يرمي إلى تحرير الحيرة من النفو الفارسي . وكان من الطبيعي أن تتحرك حكومة المدينة لنصرة هؤلاء المجاهدين العرب . وعلى ها النحو فإن التعامل الرئيسي للفتوحات الاسلامية هو عامل قومي أساسه نضوج قومية العرب وكانت الفتوح الأولى دون تدبير سابق أو وفقاً لخطة موضوعة ، وإنما جاءت نتيجة لظروف خاصة تحكمت في الأحداث .

د ـ العوامل المساعدة :

١ ـ عوامل نفسية :

وأول هذه العوامل رسوخ إيمان العرب بدينهم وارتفاع روحهم المعنوية وكان الظفر بالاستشهاد غاية ما يتمناه العربي المسلم . ومن العوامل النفسية أيضاً حرص أبي بكر على ملأ الفراغ الهائل الي

ترتب على وفاة رسول الله ، ويبدو أن أبا بكر كان يميل إلى شغل القوى التي تمكنت من قمع حركة الردة بمهام جديدة ، حتى لا يتفرغوا للفتن التي ألفها العرب في أوقات فراغهم ، ولم يشأ أبو بكر أن يشرك المرتدين المنهزمين في صفوف المحاربين حتى لا يدخل الوهن في جيوش المسلمين ثم أن أبا بكر لم يكن يقبل أنصاف الحلول .

ومن العوامل النفسية أيضاً التي ساعدت على الانتصارات الاسلامية وقوف أهل البلاد المفتوحة إلى جانب الفاتحين المسلمين ، ومن المعروف أن سكان الشام الجنوبية وجنوب غرب العراق كانوا عرباً متنصرة ، وقد عانى هؤلاء كثير في ظل الروم والفرس فانضموا إلى العرب الفاتحين منذ اللحظة الأولى بدافع من الشعور بالقومية العربية أو العصبية . واعتبروهم المخلصين لهم من ظلم وعسف كانوا يئنون تحت ثقلها في العصر البيزنطي ، ولذلك لم يلق العرب مقاومة تذكر إلا في قنسرين .

٢ ـ ضعف الدولتين البيزنطية والساسانية واضطرب الأحوال فيهما :

كانت الدولتان البيزنطية والساسانية من القرن السادس الميلادي قد اعتراهما الضعف والوهن بسبب الحروب المتبادلة التي اضطرت الدولتان إلى خوض غمارها والتي أدت إلى شيوع الفوضى والإضطراب في جميع المرافق الاقتصادية في البدين ، فمن انقسامات مذهبية ، إلى كساد إلى إفلاس في الخزانة ، وإلى حروب أهلية إلى تباين في التكوين الاجتماعي .

وقد ترتب على هذا الضعف الشامل بالاضافة إلى تعرض السكان العرب في تخوم العراق في بادية الشام لصنوف العذاب

والاضطهاد أن تخلى العرب في هاتين المنطقتين عن حراسة الحدود في الوقت الذي أهمل فيه الروم تحصين البلاد الواقعة ما بين جبال الكرمل وبحيرة طبرية ، بعد أن سحبوا حامياتها لتعزيز المناطق الشمالية المواجهة للدولة الساسانية .

ـ ٢ ـ

فتوح الشام ومصر والمغرب

١ ـ فتوح الشام :

الاشتباكات الأولى :

انهزمت طلائع المسلمين بقيادة خالد بن سعيد بن العاص على أيدي الروم بقيادة القائد البيزنطي باهان Bannes ، فسيّر إليه أبو بكر بعثاً من المسلمين بقيادة ذي الكلاع الحميري وعكرمة بن أبي جهل ، ثم لحق بهما الوليد بن عقبة في جيش لمساندته . زحف خالد بن سعيد إلى جنوب البحر الميت لمقاتلة الروم ، فاستدرجه فاهان ، فتبعه خالد ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد ، إلى أن وصلت قوات المسلمين إلى مرج الصفر الواقع إلى الشرق من بحيرة طبرية ، وعندئذٍ طوقتها قوات باهان وقطعت على المسلمين خط الرجعة ، واضطر خالد إلى أن يشتبك مع البيزنطيين في إحدى المواقع ، فانهزم وقتل إبن له ، وفي تلك الأثناء أخذت حشود المطوعة تتوافد من سائر أنحاء الجزيرة العربية وتتجمع في المدينة . وعندئذ عقد أبو بكر أربعة ألوية أحدها لشرحبيل بن حسنة ، والثاني لعمرو بن العاص ، أما الثالث فقد عقده ليزيد بن أبي سفيان ، في حين عقد

الـرابع لعبيدة بن الجراح . وحـدثت عدة اشتبـاكات متفـرقـة مـع البيزنطيين ، وأمام هذا التفوق العددي الرهيب للروم فزع المسلمون إلى عمرو بن العاص فنصحهم بالاجتماع وتوحيد البعوث وكانوا قد كاتبوا الخليفة ، فردّ عليهم بمثل رد عمرو ، وكتب أبو بكر بن الوليد وهو بعين التمر بالعراق يستحثه على المسير إلى المسلمين في الشام على أن يصحب معه نصف عدد المسلمين ويترك النصف الآخر مع المثنى بن حارثة . وإخترق خالد الصحراء الفاصلة ما بين العـراق والشام في ثمانية أيام ، إلى أن وصل إلى بصرى وعليها شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح ، فاشترك خالد في محاصرتها ، فصالحه أهلها . ثم افتتح المسلمون جميـع المناطق التابعة لكورة حوران، كما تمكن أبو عبيدة من فتح مآب .

وقعة أجنادين :

تجمعت حشود البيزنـطيين في أجنادين ، وهي بلدة تقـع بين الـرملة وبيت جبرين من أرض فلسـطين ، فزحـف المسملون نحـو أجنادين ، ونزلوا بها ، وتم اللقاء بين البيزنطيين بقيادة تيودور أخي هرقل (تـذارق) والفيقار وقيـل الأرطبون ، وبين المسلمين بقيـادة أمراء البعوث مجتمعين في جمادي الآخرة سنة ١٣ (يوليو ٦٣٤) . وانتهت المعركة بهزيمة نكراء مني بها البيزنطيون وقتل الفيقار وتذارق وأعداد هائلة منهم .

وقعة اليرموك :

وبلغ المسلمين أن هرقل ، امبرطور الدولة البيزنطية ، قادم بنفسه على رأس جيش ضخم قدّره المؤرخون بما لا يقل عن مائتين

وأربعين ألفاً وذكر الطبري أن جيش المسلمين كانت عدته ٤٦ ألفاً ، وكان يتولى قيادة جيوش بيزنطية القائد الأرمني باهان وكان من بين الفرق البيزنطية فرقة من الغساسنة ومستعربة الشام من لخم وجذام يتقدمهم جبلة بن الأيهم الغساني ، وفرقة من أهل أرمينية والجزيرة.

ثم اجتمع المسلمون شمالي نهر اليرموك ويبدو أن نظام الجيش تحت قيادة أربعة من أمراء المسلمين لم يحظ برضاء خالد ، وكان يرى توحيد القيادة الاسلامية ليلقى المسلمون الروم صفاً واحداً . فأمّروه على أنفسهم ، ثم وزع خالد جيوش المسلمين إلى كراديس ، ثم قسم الكراديس إلى ثلاثة أقسام : ميمنة وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، وميسرة وعليها يزيد بن أبي سفيان ، وقلب وأقام عليه أبا عبيدة بن الجراح .

وما كاد القتال ينشب حتى قدم البريد من المدينة فأبلغ خالد بوفاة أبي بكر في ليلة النصف من جمادي الآخرة سنة ١٣ هـ ، وخلافة عمر ، كما أبلغته نبأ عزله عن الإمارة وتوليه أبي عبيدة ، فأخفى خالد وفاة أبي بكر وأخذ الكتاب من البريدي وجعله في كنانته .

فانهزم فرسان العدو وتركوا مشاتهم تحت رحمة المسلمين ، وانتهى اليوم بنصر حاسم للمسلمين ، أبادوا فيه العدد الأعظم من جيش البيزنطيين .

فتح دمشق :

وبموقعة اليرموك انهار سلطان الروم ، وزحف أبو عبيد إلى

دمشق ، في المحرم سنة ١٤ ، وأحكم الحصار حولها ، ويذكر مؤرخو العرب أن خالد كان يقظاً لا ينام ولا ينيم ولا يخفي عليه من أمور أهل دمشق شيئاً ، فانتهز فرصة اشتغال الروم بأحد احتفالاتهم ، وغفلتهم عن حراسة الباب الشرقي ليقتحمها ، ولما أيقن الروم أن المدينة اقتحمت عنوة بادروا بمصالحة أبي عبيدة وفتحوا له باب الجابية ،

فتح مدن الشام الشمالية :

سار المسلمون بقيادة أبي عبيدة بعد فتح دمشق إلى فحل ، فجعل خالداً على المقدمة ، واشتبك المسلمون مع البيزنطيين في معركة انتهت بهزيمة البيزنطيين ، واستولى المسلمون على فحل ، ثم استولوا على بيان وطبري ، وفتح شرحبيل جميع مدن الأردن وتغلب على سواده . ثم قصد بعلبك وحماة وشيزر فخرج إليه أهلها مسالمين مصالحين ، وواصل أبو عبيدة زحفة فسار إلى معرة النعمان وافتتحها صلحاً . وعهد أبو عبيدة بفتح سواحل سورية إلى عبادة بن الصامت ففتحها عنوة ، ثم افتتح أنطرطوس وكانت خالية من سكانها ، وافتتح جبهل عنوة ، أما أبو عبيدة فقد سار وعلى مقدمته خالد إلى قنسرين وكانت لتنوخ ، فغلبةالمسلمون على أرضها وقراها وقتلوا ميناس قائد جيش الروم. وصالح أبو عبيدة أهلها. ورحل ألى حلب وافتتحا صلحاً ، ومن هناك زحف إلى أنطاكية.

وما زال أبو عبيدة يفتتح المدن ويستنزل القلاع حتى بلغ الفرات، ثم عبرت جيوش المسلمين درب بغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد بيزنطية بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي ، وسيّر خالد بن

الوليد إلى مرعش فافتتحها وصالح أهلها .

كان أرطبون قائد الروم قد فر بعد أجنادين إلى إيلياء (بيت المقدس)، فمضى عمرو بن العاص يفتتح مدن فلسطين، ونابلس ولد ويبني وعمواس وبيت جبرين ويافا ومرج عيون ، وعكا وعسقلان وغزة ورفح دون قتال . ثم زحف عمرو نحو إيلياء وحاصرها زهاء ٤ أشهر وقدم عليه أبو عبيدة بعد أن أتم فتح قنسرين ، فاشترط صفرونيوس بطريق إيلياء على أبي عبيدة أن يأتي عمر بن الخطاب بنفسه ليتسلمها ويوقع معاهدة الصلح خوفاً من أن تتعرض كنيستهم العظمى لأعمال التخريب ، فقدم عمر بن الخطاب في سنة ١٦ هـ وعقد عهد الصلح لأهل إيلياء على يد عمر بن الخطاب في ربيع الآخر سنة ١٦ هـ . أما عمرو فقد مضى إلى قيسارية وحاصرها ، ولكنه لم يتمكن من افتتاحها ، ويكاد يجمع المؤرخون على أن معاوية هو الذي فتحها قسراً في شوال سنة ١٩ هـ .

فتح سواحل الشام الجنوبية :

ما إن انتهى المسلمون من فتح دمشق حتى وجه يزيد بن أبي سفيان همه إلى فتح مدن الساحل الشامي ، ولم يأت عام ١٧ هـ حتى كان قد افتتح صيدا وعرقا وجبيل وبيروت ـ وساعد على فتح هذه السواحل أخوه معاوية ، وكان فتح طرابلس يستلزم حصاراً من البر والبحر في آن واحد قد يطول أمده ، ولذلك رأى يزيد أن يرجىء فتح طرابلس إلى أن تتوفر له الإمكانيات ، فلم يكن للعرب بعد خبرة بشؤون الحصار البحري ، ولم يتهيأ لمعاوية إتمام فتح طرابلس إلا في خلافة عثمان بن عفان . وعلى الرغم من أن البيزنطيين استرجعوا

بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وبداية خلافة عثمان ، فقد تيسر لمعاوية افتتاحها من جديد .

طاعون عمواس :

تم فتح بلاد الشام في سنة ١٧ هـ ، ثم حدث في العام التالي أن انتشر وباء الطاعون بصورة مريعة في الشام ، وعرف هذا الطاعون بطاعون عمواس نسبة إلى قرية من قرى فلسطين ، وقد تسبب هذا الطاعون في وفاة ٢٥ ألفاً ، وتوفي به جماعة من كبار الصحابة منهم أبو عبيدة بن الجراح ، وشرحبيل بن حسنة ، يزيد بن أبي سفيان ، وكان عمر بن الخطاب يهم بدخول الشام قادماً من المدينة ، عندما قابل جماعة من المسلمين نصحوه بالعودة إلى المدينة .

ب ـ فتح مصر :

الأسباب :

انتهـز عمرو ابن العاص فرصة وفود عمر بن الخطاب إلى الشام في سنة ١٧ هـ ، واستأذنه في السير إلى مصر لفتحها . وحاول إقناع الخليفة عمر بضرورة فتحها وحرضه عليها ، وكان عمر كارهاً لغزوها إشفاقاً على المسلمين ، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده ويهون عليه فتحها حتى استجاب له عمر ، فعقد له أربعة آلاف رجل ، ويبدو أن عمر عدل عن موافقته فكتب إلى عمرو على الفور يأمره بالقفول ، وأدرك الكتاب عمراً وهو برفح ، فلم يأخذه من الرسول وواصل سيرة حتى دخل حدود مصر ، ويزعم بعض المؤرخين أن عَمْراً سار إلى مصر بغير إذن ، ثم كتب إلى الخليفة يستأذنه ، وجاءه رد عمر وهو دون العريش ، فلم يقرأ الكتاب حتى بلغ العريش .

وهناك فريق آخر من الرواة يرجعون الفكرة إلى عمر بن الخطاب ويذكرون أن عمر وهو بالجابية كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص إلى مصر . ومن المعتقد أن عمراً أدرك ضرورة فتح مصر من الوجهة العسكرية أولاً للإفلات من تطويق الروم للمسلمين من جهة الجنوب والغرب وبالاضافة إلى هذا العامل كان العرب على علم تام بعظم ثروة مصر وأهمية موقعها الجغرافي ، ويضاف إلى هذا العامل الاقتصادي عامل آخر سياسي ، ذلك أن الشام ومصر كانت وما زالت تربطهما مصالح سياسية وحربية وتجارية واحدة ، وكثيراً ما ارتبط الشام ومصر معاً في وحدة تاريخية وثيقة ، وكان مصيرهما واحداً خلال فترات طويلة منن التاريخ القديم والوسيط ، فإن عمْراً سار بجيشه في ١٨ هـ، فوصل إلى العريش ومنها إلى الفرما وكان بها قوم من الروم مستعدون للقتال، فاشتبك المسلمون مع الحامية البزنطية ، واستمر حصار المسلمين لها ما يقرب من شهر إلى أن سقطت في أيدي المسلمين . والظاهر أن فريقاً من الأقباط انضموا إلى جانب المسلمين .

موقعة حصن بابليون :

واصل عمرو زحفه إلى حصن بلبيس ، فقاتل البيزنطيين نحو شهر حتى افتتحها ، ثم مضى في طريقه إلى شمال حصن بابليون ، وهناك اشتبك عمرو مع البيزنطيين في قتال عنيف ، انتهى بهزيمة الروم فتحصنوا داخل الحصن ، فحاصرهم ، وقاتلهم قتالاً شديداً . فلما تعذّر على عمرو فتح الحصن . وطال أمد الحصار كتب عمرو إلى عمر يستمده ، فأمده عمر بأربعة آلاف رجل . ولما طال الحصار

على قيرس حاكم مصر أخذ يفاوض عَمْراً في شروط الصلح ، وأرسل قيرس هذه الشروط إلى هرقل ، ورفض الروم الصلح واستؤنف القتال من جديد . وفي هذه الأثناء عمد الزبير إلى اصطناع الحيلة ، فنزل وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه فتدفق المسلمون المسلمون في الحصن ، وعقد العرب المصريين معاهدة تعرف بمعاهدة حصن بابليون الأولى في سنة ١٩ هـ . وكان عمرو قد استغل فرصة غياب قيرس في بيزنطة ، فاستولى على الفيوم وعين شمس والأشمونين وإخميم وقرى الصعيد وعلى تنيس ودمياط ودميرة وغيرها ، ثم عبر المسلمون نهر النيل متوجهين إلى الاسكندرية حاضرة مصر .

فتح الاسكندرية :

سار عمرو إلى الاسكندرية في ربيع الأول سنة ٢٠ هـ ، واشتبك عمرو مع الروم في نقيوس ثم في سلطيس وانهزم البيزنطيون في كل من هذين الحصين . ثم التقى عمرو بالبيزنطيين في حصن الكربون . وهناك قامت معركة حامية استمرت عدة أيام انتهت بانتصار عمرو على تيودور قائد القوات البيزنطية وتحصنت فلول الجيش البيزنطي في الاسكندرية وكانت الاسكندرية مدينة حصينة لها أسوار محكمة البناء .

وذكر ابن عبد الحكم أن عَمْراً حاصر الاسكندرية مدة ثلاثة أشهر حتى صالحه المقوقس (قيرس) عن أهلها ، وأن هذا هو الفتح الأول . وساعد على فتح العرب الاسكندرية موت الامبراطور هرقل وضعف الحكومة البيزنطية وقيام المنازعات في القسطنطينية من أجل العرش ، مما اضطر البيزنطيين إلى العمل على إنهاء حالة الحرب ،

وذلك بعقد صلح مع المسلمين ، وثم الاتفاق بينهما على أن يبقى المسلمون مدة ١١ شهراً خارج المدينة حتى يبحر الروم. ووقعت المعاهدة بين الطرفين في طليعة نوفمبر سنة ٦٤١، وتم إبحار الروم في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م .

ج - فتح برقة وأفريقية :

فتح برقة :

بعد أن استكمل عمرو بن العاص فتح مصر كان من الطبيعي أن يفكر في فتح برقة وطرابلس الغرب لعاملين ، الأول : أن برقة كانت تعتبر امتداداً طبيعياً لمصر ، وإقليمياً متمماً لها ، والعامل الثاني هو رغبة عمرو في تطبيق سياسة الإستمرار في الفتح نحو الغرب ، ولم ينتظر عمرو حتى ينتهي تماماً من فتح مصر ، فنراه يبادر بإرسال عقبة بن الفهري على رأس حملة استطلاعية إلى برقة « انطابلس » . والظاهر أن عمرو بن العاص اطمأن إلى تقرير عقبة بن نافع بلاد برقة ، فعجل بتسيير جيوشه لفتحها.

سار عمرو على رأس جيش من فرسانه غرباً حتى قدم برقة ، وكان يسكنها بطون من قبيلة لواتة البترية وهي من أكبر قبائل البربر شأناً . وكان بربر لواته ساخطين على البيزنطيين ،وهذا يفسر مبادرتهم بتقديم فروض الولاء لجيش المسلمين واستسلامهم لهم طائعين مختارين .

وما إن أتم عمرو فتح برقة حتى شرع في فتح طرابلس تمهيداً للدخول في إفريقية ، وقد استلزم الأمر تجهيز جيشين : أحدهما

يسير بحذاء الساحل بهدف الإستيلاء على طرابلس وما يليها من مدن الساحل ، والثاني يتجه نحو الداخل فسير عمرو قائده عقبة إلى فزان فافتتحها ، ثم واصل زحفه حتى بلغ زويلة .

وبينما كان عقبة بفتتح فزان كان عمرو يغزو إقليم طرابلس ، فبدأ بمدينة سرت فاستولى عليها ، ثم زحف على لبدة ، فاستولى عليها . ثم مضى نحو طرابلس وكانت مدينة حصينة ، فحاصرها شهراً ، فامتنعت عليه . ولما ظفر عمرو بمدينة طرابلس دخل المسلمون سيرت وراحة وادن .

ويبدو أن عمرو بن العاص حاول فتح بعض هذه الحصون المتناثرة فيما يلي غرباً ولكنها استعصت عليه لمناعتها ، فكتب يسأذن الخليفة في فتح أفريقية ، فجاءه رد الخليفة ينهيه عن ذلك ، فاضطر عمرو إلى الإنصراف إلى مصر بعد أن أقام قائده عقبة بن نافع على هذه البلاد ببرقة يدعو إلى الإسلام .

حملة عبد الله بن سعد على أفريقية :

أدرك البطريق جريجوريوس الخطر الذي يتهدد بلاده من الحدود الشرقية ، فرأى أن ينقل عاصمته ، إلى موضع آمن في جوف البلاد حتى لا تتعرض لغزو العرب من جهة الشرق وغزو البيزنطيين من جهة البحر ، ويبدو أن طرابلس خرجت عن طاعة المسلمين ولكن سرت ظلت قاعدة لقوات المسلمين في برقة ومركزاً لعقبة بن نافع ولعل عبد الله بن سعد كان على علم بكل ما يجري في برقة ، فكتب إلى عثمان ابن عفان (وكا قد تولى الخلافة) يخبره بما تعرض له المسلمون من عدوهم ويستأذنه في عزو أفريقية ، فاجتمع الخليفة

عثمان بوجوه الصحابة واستشارهم فأجمعوا على موافقته استنفر عثمان المسلمين ، فأمّر عليهم الحارث بن الحكم حتى يقود الحملة إلى مصر ، وفي برقة استقبله عقبة بن نافع ، ومن هناك أرسل سرية تقدمت الجيش إلى طربلس ، حاول المسلمون اقتحام المدينة ، ولكنها استعصت عليهم، فواصلوا السير نحو أفريقية. اضطر البطريق جريجوريوس إلى الخروج من سبيطلة لملاقاة جيوش العرب، والتقى الجيشان بالقرب من سبيطلة، اقتصر القتال بادىء ذي بدء على مجرد اشتباكات فاترة ، استغرقت أياماً . والظاهر أن هذه الاشتباكات كشفت عن تفوق جيوش الروم على جيوش المسلمين، مما دعا ابن الزبير إلى أن يفاجىء الروم بالهجوم بعد الانتهاء من القتال اليومي عندما يكون التعب والجهد قد أخذا منهم مأخذاً عظيماً . ونجحت خطة ابن الزبير واستطاع أن يصل في يسر إلى معسكر البطريق، وتمكن أخيراً من قتله، وانهزم الروم بعد مصرع ملكهم هزيمة شنعاء .

ثم زحف عبد الله بن سعد بعد ذلك نحو سبيطلة العاصمة ، فحاصرها وتمكن من الاستيلاء عليها ، وغنم غنائم كثيرة ، ثم بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة ، وتأهب للعودة إلى مصر ، دون أن يتخذ بالمغرب قيروانا ، وكانت قد وصلته أنباء بقيام الروم في المسالح والحون الشمالية بالتجمع لقصده ، فخاف أن يشتبك معهم في قتال قد ينتهي بهزيمته، وكان لا بد من العودة إلى مصر للنظر في شؤون ولايته من جهة ، وللقضاء على مظاهر الاضطراب الناشئة من سخط المسلمين على سياسة عثمان عامة من جهة أخرى ، ثم إن

جيش المسلمين كان قد غنم عنائم هائلة كانوا يحرصون على العودة بها إلى مصر .

ـ ٣ ـ

فتوح العراق وفارس والجزيرة وأرمينية

١ ـ فتوح العراق :

الأسباب :

خرج العرب إلى أرض الحيرة استجابة لنداء بعض القبائل العربية التي كانت تابعة للدولة الساسانية ثم انتقضت عليها ، ونخص بالذكر منها قبيلة بكر ، التي لاحظت ضعف الدولة الفارسية ، فكان يخرج رجلان من بكر بن وائل هما المثني بن حارثة الشيباني وسويد بن قبطة العجلي ، يغيران على الدهاقين ، وكان المثنِي يغير من ناحية الحيرة ، في حين كان سُويد يشن غاراته من ناحية الأبلة ، فكتب المثنى إلى أبي بكر « يعلمه ضراوته بفارس ، ويعرفه وهنهم ، ويسأله أن يمده بجيش » ، والأرجح أن عرب بكر بن وائل وشيبان وعجل وغيرهم من القبائل العربية الضاربة في بادية العراق أخذوا يتجرأون على الدولة الساسانية منذ أن انتصروا على الفرس في يوم ذي قار . وبادر أبو بكر بعد ذلك بإرسال أول بعث حربي إسلامي إلى خارج شبه جزيرة العرب نحو الشمال الشرقي لنصرة المثنى بن حارثة ، فكتب إلى خالد بن الوليد المخزومي وهو باليمامة يحارب أهل الردة يأمره بالمسير إلى العراق ، وكان أبو بكر قد كتب إلى المثني بأمره ببذل الطاعة لخالد والانضمام إليه .

فتح الحيرة والأنبار :

ومضى خالد نحو الحيرة فافتتح كسكر ودرني وهرمزجرد بالأمان ، وسار إلى أليّس ، فتصدى له جابان صاحب أليس ، فبعث إليه خالد المثنى بن حارثة ، فقاتله وهزمه ، ثم صالح خالد أهل أليّس .

وواصل خالد زحفه نحو الحيرة حتى دنا منها فخرجت إليه فرسان آزاذبة صاحب خيل كسرى ، فقاتله المسلمون في موضع يعرف بمجتمع الأنهار ، وهزموه ونزل المسلمون على الحيرة فتحصن أهلها ، ثم صالحوا خالداً . ثم أغزى خالد بشير بن سعد الأنصاري إلى بانقيا ، فحمل عليهم وهزمهم ، وأصيب بشير بن سعد إصابة بالغة ، لم يلبث أن توفى بسببها وهو بعين التمر . فبعث خالد جرير بن عبد الله البجلي ليحارب أهل بانقيا ، وعندئذ خرج إليه بصبهري بن صلوبا . وسار خالد إلى الأنبار ، وقدم إليه بها المثنى بن حارثة، فحاصروا أهلها حتى اضطروا إلى مصالحة خالد. وكان أبو بكر قد كتب إلى خالد يأمره بالشخوص إلى الشام ليمد أبا عبيد بن الجراح بمن معه من المسلمين، فسار إلى الشام ليمد الأنبار، ثم رحل عنها إلى عين التمر ، وكان يتولى الدفاع عنها مهران ونشب قتال عنيف انتهى بهزيمة أهل الحصن ، فانسحبوا إلى حصنهم فحاصرهم خالد حتى طالبوا الأمان ، فأبى أن يؤمنهم واستنزل الحصن عنوة ، ثم وجه خالد وهو بعين التمر النّسَيْري بن ديسم بن ثور إلى ماء لبني تغلب ، ومن هناك أغار النسير على حي من ربيعة ، ثم على تكريت وعكبرا وغنم غنائم كثيرة .

هزيمة المسلمين في موقعة الجسر :

ولم يزل المثني بن حارثة وعمرو بن حزم يتطرفان أرض السواد ويغيران فيها حتى توفي أبو بكر في ٢٢ جمادي الآخرة سنة ١٣ هـ ، وبويع عمر بن الخطاب بالخلافة ، فعزم عمر على توجيه الإمدادات إلى العراق ، فعقد لأبي عبيد ابن مسعود الثقفي على خمسة آلاف رجل ، وأمره بالسير إلى العراق ، فلما اقترب من العذيب خرج جابان الفارسي على رأس جيش كبير لمحاربته ، وتم الاشتباك وانتهى بهزيمة جابان ، تصدى له في موضع يسمى درني جمع من الفرس فهزمهم ، ثم صالح الفرس على الجزية ، فلما وصل أبو عبيد الثقفي إلى قس الناطف واستقبله المثنى فيمن معه ، فبعث الفرس قائداً من قوادهم هو مردان شاه في أربعة آلاف فارس ، وكان يفصل بين الجيشين جسر قديم معتل مقطوع ، فأصلحه أبو عبيد ليعبر عليه جيشه فنصحه المثني بالبقاء حتى لا يجعل نفسه ومن معه من المسلمين هدفاً للفرس ، فغضب أبو عبيد ووصمه بالجبن، وعبر إلى الفرس بمن معه من المسلمين في آخر رمضان سنة ١٣ وكاد المسلمون يظفرون بالنصر لولا أن وقع أبو عبيد فبرك عليه الفيل فمات . وكر الفرس على المسلمين فانهزموا وتهافتوا في الفرات .

يوم النخيلة أو البويب :

ثم كتب المثنى إلى عمر بن الخطاب بخبر هذه الهزيمة، فاستنفر عمر الناس إلى العراق، فلما تكاثر الناس لديه عقد لجرير بن عبد الله البجلى عليهم ، فسار حتى بلغ العذيب ، حيث انضم إليه المثني فيمن معه ، وحدث الاشتباك بين الفرس والعرب في موضع يقال له

البويب ، وأبلى المثني في هذه الموقعة بلاء حسناً ، نجح في قتل مهران. وبانتصار المسلمين في البويب ثبتت أقدامهم في السواد .

فتح الأبلة وتخطيط البصرة :

علم سويد بن قطبة العجلي بما ظفر به المثني من انتصار يوم مهران ، فكتب إلى عمر بن الخطاب يعمله بما حل بالمسلمين من وهن في منطقة نفوذ سويد ويسأله أن يمده بجيش ، فندب عمر بن الخطاب لذلك عتبة بن غزوان المازني ، فمضى عتبة حتى نزل موضع البصرة والأبلة، فافتتحها عنوة. ثم مضى إلى المذار، وما زال يفتتح مدينة إثر مدينة ، حتى أصبح يسيطر على كل إقليم البصرة وفي هذه الأثناء تولى أبو موسى الأشعري بأمر الخليفة عمر بناء مدينة البصرة ، ووزع الخطط بين الناس .

ب ـ فتح فارس :

وقعة القادسية :

سار رستم إلى القادسية ، وقد صمم على مقاتلة العرب فلما بلغ جرير الجلي والمثنى بن حارثة ذلك كتباً إلى الخليفة يستمدانه ، فاستنفر عمر العرب ، فاحتشد نحو عشرين ألف رجل وولى عليهم سعد بن أبي وقاص، فسار سعد حتى قدم العذيب، وكان المثنى مريضاً ، ثم توفي المثني قبل أن يصل رستم إلى القادسية . سار سعد إلى القادسية وأقام بها شهراً دون أن يحدث اشتباك بينه وبين الفرس . ومن القادسية بث سعد الغارات بين كسكر والأنبار ،وغنم غنائم كثيرة .

أقام رستم بدير الأعور معسكراً زهاء أربعة. زود عمر سعداً بألف فارس يقودهم المغيرة بن شعبة من قبل أبي موسى الأشعري، وألف فارس أخرى بقيادة قيس بن مكشوح من قبل أبي عبيدة بن الجراح، تحركت قوات الفرس حتى نزلت القادسية، ثم ترددت رسل سعد إلى معسكر رستم شهراً وفشلت المفاوضات، واشتبك الجيشان ودامت المعركة يومين وانتهت بهزيمة الفرس، وقتل رستم وولى رجاله هاربين.

وتبع انتصار المسلمين في القادسية سقوط المدائن عاصمة الدولة الساسانية، وكان يزدجرد قد فر من العاصمة، وحاول خرزاد بن هرمز أخو رستم قتيل القادسية أن يصمد أمام الحصار، فلما رأى ألا فائدة من المطاولة اضطر إلى الخروج ليلاً واتجه إلى جلولاء، ودخل المسلمون المدائن، وأصاب المسلمون في المدائن غنائم لا حصر لها.

وقعة جلولاء :

فلما وصل جيش المسلمين إلى جلولاء وجدوا الفرس بقيادة خرزاد قد تحصنوا وخندقوا، وتعاهدوا على الثبات حتى الموت، وكانت الامدادات تصل إليهم من حلوان والجبال، فعجّل المسلمون بالهجوم قبل أن يستفحل خطرهم. واشتد القتال بين الفريقين، ولكنه انتهى بهزيمة الفرس، وفي آخر سنة ١٦ هـ. وتم لجرير فتح حلوان صلحاً.

وقعة نهاوند :

جمع يزدجرد جيشه فولىّ عليهم مردان شاه بن هرمز، ووجههم

إلى نهاوند بقصد طرد المسلمين من العراق . فلما بلغ عمر ذلك أمر كل مصر بتسيير الثلث من قوته ، وولى إمارة هذا الجيش النعمان بن مقرن المزني من خيار الصحابة ، اشتبك هؤلاء معهم في معركة ضارية استمرت ثلاثة أيام ، وانتهت بهزيمة ساحقة أصيب بها الفرس ، فتراجعت فلولهم إلى حصن نهاوند فامتنعوا فيه ، ولم يلبث أصحاب الحصن أن صالحوا المسلمين على الأمان . وتعتبر موقعة نهاوند خاتمة المعارك الفاصلة في تاريخ الفتح العربي لفارس ولذلك سميت فتح الفتوح ، والأرجح أنها وقعت في سنة ٢١ هـ .

وترتب على انتصار المسلمين في نهاوند سقوط عدد من المدن، منها الدينور ، ومنها ما سبذان والسيروان وهمذان ومدينة قم وقاشان . ولم تستعص على المسلمين سوى اصطخر التي لاذبها يزدجرد ، ثم انتقض أهل اصطخر عليه فهرب يزدجرد إلى خرسان ، وبمصرع يزدجرد دالت دولة الفرس.

ج ـ فتح الجزيرة وأرمينية :

فتح الجزيرة :

كان الإستيلاء عليها ضرورة حربية لتأمين فتوح الشام . وكان أبو عبيدة بن الجراح قد بعث عياض ابن غنم لفتحها ثم توفى أبو عبيدة فخلفه عياض ، وورد عليه كتاب عمر بن الخطاب بتولية حمص وقنسرين والجزيرة . وتمكنت جيوش عياض من الوصول إلى الرقة ، فصالح بطريق المدينة بعد بضعة أيام . ثم واصل عياض زحفه إلى حران ، وصالح أهل حران . ثم زحف عياض إلى سميساط ، فصالحه أهلها . وسير عياض أبا موسى الأشعري إلى نصيبين في سنة

١٩ فافتتحها ، كما افتتح قرقيسياء وسنجار وميافارقين وقرى الفرات ، وآمد وحصن كفروتوثا وماردين وداراً صلحاً . ثم افتتح عياض أرزن صلحاً ، وبلغ في فتوحه بدليس وجاوزها إلى خلاط ، وقام عمير بن سعد الأنصاري والي الجزيرة من بعده بفتح عين الوردة بعد قتال عنيف ، افتتح رأس العين عنوة.

فتح أرمينية :

بدأت فتوح العرب لأرمينية في خلافة عثمان بن عفان ، فعندما استخلف كتب إلى معاوية عاملة على الشام والجزيرة يأمره أن يوجه حبيب بن مسلمة الفهري إلى أرمينية . وكانت معظم بلاد أرمينية خاضعة للبيزنطيين ، فوصل إلى قالقيلا ، وقاتل أهلها قتالاً شديداً وأرغمهم على التحصن في مدينتهم ، فحاصرهم ، ثم صالحوه . ولكن قائد ثغر الأرمنياق لم يلبث أن حشد للمسلمين قوات كثيفة ، فكتب حبيب بن مسلمة إلى عثمان بن عفان يسأله أن يمده بقوات من المسلمين ، كما كتب إلى معاوية فسَيَّر إليه معاوية ألفي رجل ، أما الخليفة فقد كتب إلى سعيد بن العاص عامله على الكوفة يأمره بإمداد حبيب بجيش بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي . وواصل حبيب بن مسلمة فتوحاته في أرمينية ، ونجح في الاستيلاء على دبيل كذلك افتتح النشوى وجزران وتفليس ، وساعده سلمان بن ربيعة الباهلي في فتح بقية مدن أرمينية .

ـ ٤ ـ

تنظيم عمر بن الخطاب للفتوح

أ ـ التنظيمات المالية :

الديوان :

كان لا بد للخليفة عمر بن الخطاب أن يقوم بتنظيم الدولة العربية الإسلامية بعد أن اتسعت اتساعاً هائلاً بفتوحات الشام والعراق وفارس ومصر ، فقد أدت الفتوحات إلى ضرورة استقرار الجند في الولايات المفتوحة، وضرب معسكراتهم إما في المصْرَين وهما مدينتا البصرة والكوفة ـ لتكونا معسكرات ثابتة وقاعدتين حربيتين وإما في الأجناد ، وهي مناطق نزول المحاربين المسلمين في الشام ، وكان المسلمون يحاربون حتى عهد عمر بن الخطاب بدون عطاء أو رزق معين ، وإنما كانوا إذا غزوا بلداً أخذوا نصيبهم من الفيء والغنيمة . وهنا اقتبس عمر بن الخطاب من الفرس نظام الديوان لضبط دخل الدولة ونفقاتها .

بدأ الخليفة عمر بانشاء ديوان الجند المعروف بديوان العطاء ، في المحرم سنة عشرين . وذكر بعض الرواة أن عُمَراً استشار المسلمين في تدوين الديوان ، وأمر بكتابة الناس على منازلهم ، وأمر أن يكون البدء بقرابة رسول الله الأقرب فالأقرب ، ثم بمن يليهم من قبائل قريش بطن بعد بطن حتى استوفى جميع قريش ، ثم انتهى إلى الأنصار .

ثم فرض لأهل الديوان ففضل أهل السوابق والمشاهد في

الفرائض ، فبدأ بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار ، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء ، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر ومن مهاجرة الحبشة ، وفرض لمن بعد بدر إلى الحديبية ، ولمن بعد الحديبية ولمن شهد الفتح وقاتل قبل القادسية ولأهل القادسية والشام ، ولأهل البلاء البارع ، ولمن بعد القادسية واليرموك ، وفرض للعباس بن عبد المطلب ، ولم يفضل على أهل بدر سوى أزواج رسول الله ، ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم ، ولم يغفل الديوان حق من أسلم من العجم . ونخرج من ذلك بأن نظام الديوان قام من حيث الترتيب العام على ثلاثة أسس متتالية : ١ ـ أساس النسب والقرابة برسول الله قبيلة بعد قبيلة . ٢ ـ أساس السابقة في الإسلام وحسن الأثر في الدين . ٣ ـ التفضيل عند انقراض أهل السوابق بالتقدم في الشجاعة والبلاء في الجهاد . على أن تقدير العطاء كان يخضع في ذلك كله للكفاية حتى يستغنى بها عن التماس مادة تقطع عن حماية الدين ، والكفاية تتوقف على عدد من يعوله المحارب ، وعدد ما يرتبط من الخيل ، وعلى مدى الغلاء في الموضع الذي يحل به .

بيت المال :

وأنشأ عمر بن الخطاب بيتاً للمال قصد به حفظ الأموال الفائضة عن حاجة الجند ، وكانت الموارد تعتمد أساساً على الزكاة أو الصدقات وتعتبر رصيداً مالياً لجماعة المسليمن للإنفاق منه على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وفي الرقاب وفي سبيل الله . ولما اتسعت الدولة العربية الاسلامية في زمن عمر بن الخطاب ، وتدفقت

الأموال على العرب ، حدث تطور في نظام بيت المال ومصادره ، فأصبحت موارده من الفائض من مال الخراج والجزية والعشور بعد استبعاد النفقات على الجيش والمشروعات العامة كما كانت تضم إليه الأراضي التي جلا أهلها عنها وسميت الصوافي والقطائع .

وقد أقر عمر النظم المالية الساسانية في العراق وفارس بينما أقر النظم البيزنطينة في الشام ومصر ، وكان ذلك سبباً في الاختلاف الواضح بين الأحكام في العراق وفارس عنها في الشام ومصر ، لإختلاف لغات الدواوين فيما بينها ، وكان من العسير على عمر أن ينقل هذه الدواوين إلى العربية ويستخرج منها نظاماً موحداً .

أما الجزية فضريبة على الرؤوس أهل الذمة من النصارى واليهود ، وتسقط إذا دخل الذمي في الإسلام ؛ ولا تجب إلا على الرجال الأحرار العقلاء ، في مقابل تعهد المسلمين بالدفاع عنهم والمنعة لهم . أما الخراج فهو ما وضع على الأرض من حقوق تؤدي عنها ويختلف الخراج باختلاف ما صولح عليه المغلوبون مع مراعاة نوعية الأرض ونوعية الزرع ، ونوعية السقي .

نظام العملات :

أبقى عمر على نظام العملات المتداولة في البلاد المفتوحة رومية أو فارسية أو حميرية ، لأنه لم يكن من اليسير على العرب في هذه المرحلة أن يسكوا عملات جديدة لأنفسهم . ومع ذلك فقد حرص عمر بن الخطاب على إضافة بعض نقوش عربية مما يقتضيه الإسلام مثل : « الحمد لله » ، و« محمد رسول الله » ، كما أضاف على نقوش الفلوس البرونزية المضروبة في دمشق كلمة « جايز »

وعلى الفلوس المضروبة في حمص كلمة « طيب » أو « واف » إشارة إلى الوزن الصحيح .

ب ـ التنظيمات العسكرية والادارية :

اتبع عمر بن الخطاب مبدآن قامت عليهما السياسة العربية : **الأول** ، أن الجندية قاصرة على العرب وحدهم دون أهل الذمة ، وفي سبيل ذلك منع المحاربين العرب من امتلاك الأراضي في الشام ومصر والعراق خشية أن يفتر حماسهم الحربي ، فأقامهم في معسكرات منعزلة عن العمران مستهدفاً من عدم اختلاطهم بالمغلوبين إبقاء أصولهم العربية ، وقد رأى أن يدمج في هذه المعسكرات القبائل بعضها في بعض حتى يخفف بذلك من النزعات العصبية . **والمبدأ الثاني** : ترك المغلوبين على ما كانوا عليه من الناحيتين الإدارية والمالية .

أما عن المبدأ الأول فلم يقدر له أن يطبق إلا في عهد عمر ، فعاد العرب بعد وفاته إلى شراء الأراضي والقصور فضعف العنصر العربي وظهر جيل مترف من العرب وتفرغوا لصراع العصبيات القبلية .

وأساس إنشاء هذه المدن أو الأمصار أن تكون قواعد حربية وقدر لهذه المدن بعد ذلك أن تكون مراكز إشعاع للغة العربية والدين الاسلامي في قلب الأقطار المفتوحة ، وأولى هذه المدن البصرة . ويرجع الفضل في تمصير البصرة وتعميرها إلى واليها أبي موسى الأشعري الذي أمره عمر بن الخطاب الخروج إليها وصرف الخطط لمن استقر بأرضها من العرب ، وتحديد مواضع نزول كل قبيلة ،

كما أمره بأن يأذن للناس بالبناء وأن يبني لهم مَسجداً جامعاً ، وبأن يحتفر لأهل البصرة نهراً ، فابتدأ أبو موسى حفر نهر الأبله حتى وصل به إلى البصرة . وثاني هذه الأمصار الكوفة ، وكان سبب بنائها أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص يأمره بأن يتخذ للمسلمين دار هجرة وأن يجعل بينه وبينهم بحراً .

وسكن الكوفة بعد انشائها المحاربون العرب ثم فرقة فارسية كانت تعرف باسم جند شهانشاه ، كذلك نزل الكوفة طائفة من السريان ثم نزل الكوفة جماعة من يهود نجران ومسيحيّيها أجلاهم عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية .

وثالث الأمصار الإسلامية الفسطاط ، التي أسسها عمرو بن العاص في سنة ٢١ هـ في موضع حصين فيما بين النيل والجبل الشرقي المعروف بالمقطم ، وبدأ عمرو ببناء جامعة الموسوم باسمه ، وجعل لكل قبيلة خطه تقيم بها . وقدّر لهذه الامصار أن تصبح مراكز علمية هامة في العصر الاسلامي . ونلاحظ أن العرب حرصوا أن تكون في داخل البلاد بعيداً عن السواحل حتى لا تتعرض للغزوات البحرية ، كما راعوا فيه أيضاً أن يتوفر فيها ما يتناسب مع حياتهم البدوية من مراعي الابل وما يصلح لها .

أما عن المبدأ الثاني فنلاحظ أن عمر أقر الاحتفاظ بالنظم الادراية السابقة على الاسلام في البلاد المفتوحة حتى لا تضطرب الأمور وتسود الفوضى ، ولكنه استبعد من هذه النظم ما لا يتفق مع تقاليد العرب ؛ فقد أقر نظام الديوان الفارسي ، وطبق التقسيم البيزنطي للشام إلى أجناد ، كما أبقى على نظام الكورة في مصر . وكان يتولى

أجناد الشام في عصر الفتوحات ولاة ، على أن عمر بن الخطاب عمل على فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية . وكان القاضي يعمل مستقلاً عن الوالي ومن مهمته أيضاً الاشراف على الفيء والغنائم . وكان عمر يحاسب عماله في مواسم الحج بمكة على أعمالهم ويسأل الناس عن سيرتهم فيهم .

ج - التنظيمات الدفاعية :

أحس العرب بعد أن افتتحوا بلاداً تطل على البحر المتوسط بضرورة اصطناع سياسة بحرية لمواجهة الغارات البحرية التي يشنها الروم ، وكانت لهؤلاء الروم السيطرة الفعلية في البحر المتوسط . ولم يكن عمر بن الخطاب يرهب البحر ولكنه كان بعيد النظر ، فالعرب كانوا بعد حديثي العهد بما بلغوه من حدود بحرية، والعدو الذي يواجهونه خصم عنيد متمرس في شؤونه . ولذلك عمد الخليْفة عمر إلى تأسيس الأمصار الاسلامية في داخل البلاد ، كما عمل على انتهاج سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي على ثغور المسلمين ، فاهتم بتحصينْ السواحل ، كله بوسائل برية . بالاضافة إلى أن العرب كانوا لا يثقون بالمغلوبين من أهل البلاد المفتوحة ، مما حمل معاوية على إبدال سكان السواحل الشامية بسكان من العرب أو الموالين للعرب . وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام مبثوثة بالقلاع. وحظيت السواحل بقلاع ومحارس، ووضعت في هذه المدن حاميات مرابطة ، وشجع عمر بن الخطاب المسلمين على المرابطة على السواحل .

ثم مضت مرحلة الدفاع البحري بوسائل برية ، وآن للعرب أن

يبدأوا بدورهم الهجوم . ويرجع الفضل الأعظم في إنشاء الأسطول العربي الإسلامي إلى معاوية ابن أبي سفيان عامل الشام في خلافة كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان الذي بدأ بتحصين السواحل وشحنها بالمقاتلة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى عملية بناء السفن في مصر ، فاستحضر الأخشاب من غابات الأرز بلبنان وأرسلها في السفن إلى الاسكندرية ، واستعان بالخبراء القبط ، وتمهيداً للسيطرة على جزر البحر المتوسط ، لاتخاذها قواعد بحرية أمامية لغزو بلاد البيزنطيين نفسها .

وإذا كان عمر بن الخطاب قد نهى معاوية عن ركوب البحر وغزو أرواد ، فإن عثمان بن عفان أذن له بغزو الروم بحراً في قبرص . ويعتبر غزو المسلمين لقبرص في سنة ٢٨ هـ أول غزو بحري لهم في البحر المتوسط ، وفي نفس الوقت كان عبد الله سعد عامل مصر في خلافة عثمان يقوم بدروه بإنشاء أسطول عربي مصري في الجزيرة ، وقد اشترك الأسطولان معاً في واقعة ذات الصواري التي حدثت في سنة ٣٤ هـ ، وفيها انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً . غير أن معاوية شغل بالمطالبة بدم عثمان منذ سنة ٣٥ هـ ، ومناوءة علي بن أبي طالب من أجل الظفر بالخلافة عن مواجهة البيزنطيين ، أما هؤلاء فقد اغتنموا تلك الفرصة لتدعيم جبهتهم ، ثم وجهوا هجوماً عاتياً على سواحل الشام في سنة ٤٩ هـ . وسببوا خسائر كبيرة للمسلمين حملت معاوية على إقامة دار لصناعة الأسطول في عكا ، لتنتج له سفناً بدلاً من الاعتماد على دار صناعة مصر وحدها . وظلت عكا دار صناعة الشام حتى نقلت في زمن بني مروان إلى صور .

الفصل الخامس
الفتنة الكبرى

ـ ١ ـ

بداية الانقسام بين المسلمين إلى هاشمية وعثمانية

وجد الناس أنفسهم بعد أن طعن أبو لؤلؤة فيروز المجوسي غلام المغيرة بن شعبة الخليفة عمر بن الخطاب طعنته القاتلة ، أمام مشكلة اختيار خليفة لهم من بين ستة نفر من الصحابة رشحهم عمر بن الخطاب قبيل وفاته ، هم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف . فعندما حمل المسلمون عمر وهو جريح وأدخلوه داره طلب من عبد الرحمن بن عوف أن يدعو علياً وعثمان والزبير وسعد ، وكان طلحة غائباً ، فلما قدموا عليه خاطبهم بقوله : « فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصلْ بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم . ثم أوصى عمر هؤلاء المرشحين الستة بأن يحضر في اجتماعهم جماعة من شيوخ الأنصار ، وأن يحضر معهم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس لقرابتهما الوثيقة برسول الله وأوصى بأن يحضر إبنه عبد الله مستشاراً دون أن يكون له من الأمر شيء ، ثم أوصاه بأن يكون مع الأكثرية إذا اختلف القوم ، ومع الحزب الذي يكون فيه عبد الرحمن بن عوف إذا تساوى أهل الشورى ثلاثة ثلاثة .

فخرجوا وقد أيقن علي بن أبي طالب أن الأمر قد خرج من

الهاشمية ما دام عمر قد أوصى بأن يختار المرشحون من كان عبد الرحمن بن عوف في جانبه ، لأن عبد الرحمن كان يرتبط بعثمان برابطة المصاهرة .

ثم توفى عمر في ٢٧ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ ، ولما تم دفن عمر تشاور القوم ثلاثة أيام دون جن يتوصلوا لأية نتيجة ، فاقترح عبد الرحمن بن عوف على أهل الشورى أن يتنازل عن حقه في الترشيخ على أن يتولى هو أمرهم فيعهدون إليه باختيار أفضلهم ، فسلم عثمان باقتراحه ، ووافق عليّ . ثم بدأ عبد الرحمن بن عوف يختلي بأهل الشورى واحداً واحداً ، وظهر بعد اتصالاته بهم أن أهل الشورى قد حصروا الاختيار في شخصي علي وعثمان ، وهكذا انقسم أهل الشورى إلى فريقين : وبمعنى أصح انقسموا إلى حزبين : حزب أموي وحزب هاشمي ، وأصبح من الضروري أن يتدخل عبد الرحمن ابن عوف ، لكنه لم يشأ أن يعلن اختياره للخليفة قبل أن يعرف مشاعر الناس ويستشف رأيهم . فلما رأى اتفاق الناس واجتماعهم على عثمان جمع الرهط وبعث إلى المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد ، فأعلن اختياره وبايع عثمان بن عفان .

ومن الواضح أن القوم أيدوا عثمان لجملة أسباب : منها سابقته في الإسلام ، وإصهاره النبي ﷺ مرتين في ابنته رقية ثم أم كلثوم ، ولهجرته مع المهاجرين الأولين إلى الحبشة ، وبالاضافة إلى ذلك راعى القوم النتائج التي قد يؤدي إليها اختيار علي خليفة للمسلمين وأولها احتمال بقاء الخلافة وراثية في بيت بني هاشم لا تخرج منهم أبداً ، وهو أمر تجنبه كل من أبي بكر وعمر .

وكـان من الطبيعي أن يحتـج علي بن أبي طـالب على تحيـز عبد الرحمن بن عوف لعثمان ، ويفسر ذلك التحيز بالتنـازع القديم الذي كان قائماً في الجاهلية بين بني أمية وبني هاشـم ، فمضى علي وهـو يردد قـائلاً : « سيبلغ الكتـاب أجله » . كـذلـك أعلن بعض الصحابة سخطهم على إقصاء علي من الخلافة .

تلكأ علي إذ وجد أهل الشورى يبايعون عثمان بالخلافة ، ثم بايع عثمان وهو يقول : « خدعة وأيما خدعة » . وهكذا قامت خلافة عثمـان وسط مظاهـر التحزب والانشقـاق ، في الوقت الـذي كـان الخليفة طاعناً في السن ليّن .

ـ ٢ ـ
أسباب الفتنة

سياسة التساهل واللين بعد التشدد والتضييق :

كان عمر بن الخطاب يحرص كل الحرص على أن يلتزم العرب بعد الفتوحات حياتهم الأولى القائمة على الخشونة والتقشف والزهد خشية أن تجرفهم حياة الترف في المدن المفتوحة في تيارها، وفرض عليهم الإقامة في معسكرات خارج المدن. على أن السياسة التي التزمها عمر لم تلبث أن انتهت بانتهاء عصره ، فلما تولى عثمان الخلافة لم يتشدد كما كان يفعل عمـر ، وإنما اتبـع مع المسلمين سياسة تقوم على التساهل، فانطلق العرب في عصره إلى حياة الترف وحرصوا على الاستمتاع بها. أدت سياسة التساهل واللين التي اتبعها عثمان بعد شدة عمر إلى انطلاق كبار الصحابة والتابعين إلى الأمصار

الاسلامية وإنشاء ارستقراطية دينية ، فقد أثروا ثراء فاحشاً ، بينما كانت هناك طبقة فقيرة معدمة من المحاربين استقرت في الأمصار بعد الفتح . ويعلل المسعودي إقبال عمال عثمان وكثير من أهل عصره على الترف بأن عثمان كان في غاية الجود والكرم ، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته ، ومن المعروف أن عثمان بنى داره بالمدينة في سنة ٢٧ هـ وجعل أبوابها من الساج والعرعر ، وذكروا أنه تطاول في البنيان ، وقد حذا كثير من الصحابة حذوه .

وكان من الطبيعي أن ينكر المسلمون على عثمان ذلك وينتقدوا سماحة لكبار الصحابة بالإثراء واقتناء القصور، فانتشار نوع من الرفه الذي لا يتناسب قط مع ما ساد الدولة العربية من تقشف في خلافة الشيخين ، فتدفق الثروات على الحجاز أغرى الناس بالاستمتاع بالحياة والتنعم بسماع قصائد الحب واقتناء القيام الفارسيات ، وأمهر المغنين والموسيقيين الفرس والروم إلى المدينة .

إساءة اختيار العمال :

أنكر الناس على عثمان قيامه بعزل العمال القدمى الذين كانوا يتولون الأمصار الإسلامية وتولية آخرين من بنى أعمامه وأقربائه أساءوا السيرة وتجاوزوا الحدود ، فاستقدم عثمان عمه الحكم بن أبي العاص وابنه مروان وغيرهما من بني أمية ، والحكم هو طريد رسول الله ، كان قد غرّبه عن المدينة ونفاه عن جواره ، وكان من بين عمال عثمان الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وهو ممن أخبر رسول الله أنه من أهل النار .

وأشاع الناس في الكوفة فعاله الذميمة ، فهجم عليه جماعة من

المسلمين ، فوجدوه ثملاً ، فانتزعوا خاتمه من يده ، ورحل منهم اثنان إلى المدينة ، فأخبرا عثمان بخبره ، فزجرهما ودفع في صدريهما ، فخرجا إلى علي بن أبي طالب وأخبراه بقصة الوليد بن عقبة ، فخرج علي إلى عثمان وقال له : « دفعت الشهور وأبطلت الحدود » ، فطلب منه عثمان المشورة ، فأشار عليه بأن يبعث إلى عقبة من يستقدمه ، فأمر عثمان باستقدام الوليد فاستقدم ، وأقام عليه الشاهدان الشهادة فلم يدل بحجة ، فألقى عثمان السوط إلى علي فأخذه وجلده به أربعين جلدة ، ثم ولى عثمان بعده سعيد بن العاص ، فاستبد بالأموال وعبث بها ، وأساء السيرة . فقدم الأشتر النخعي من أهل الكوفة إلى عثمان ، وطالبوا بعزله عنهم ، فكره عثمان أن يعزله، لكنه اضطر إلى ذلك اضطراراً، فولى الكوفة على أنفسهم أبا موسى الأشعري .

تصرفات عثمان الشخصية :

لم يقتد عثمان بالشيخين في سياستهما التقشفية ، فكان يلبس الخز والطيلسان وفاخر الثياب ، وكان يأكل ألين الطعام ولكنه بحكم منصبه كخليفة للمسلمين كان عليه أن يصطنع الزهد ليكون مثلاً للأمة الاسلامية ، ولذلك أخذ عليه أبو ذر الغفاري إقباله على الدنيا ، فأمر عثمان معاوية بنفية إلى الربذة من أعمال المدينة ، فنفي إليها وأقام بها حتى توفي في سنة ٣٢ هـ .

وذكروا أن عثمان إذا أجاز أحداً من أهل بيته بجائزة جعلها فرضاً من بيت المال. وذكروا أيضاً بأنه عندما زوج ابنته أمر لها بستمائة ألف درهم، وكتب عبد الله بن عامر يأمره بأن يدفعها من بيت

مال البصرة . وكان عثمان عاطفياً إلى حد أنه أهدر دم الهرمزان الذي قتله عبيد الله بن عمر ظلماً ، وكان عمر بن الخطاب قد أمر قبل وفاته بسجن ولده ليحكم فيه الخليفة من بعده ، فلما تولى عثمان خلى سبيل عبيد الله ، ودفع لذوي القتلى ديات من ماله ، ولم يغفر المسلمون لعثمان تساهله في هذه القضية .

ومن الأمور التي أخذت على عثمان أنه أمر بضرب عمار بن ياسر عندما تجرأ عليه بدفع كتاب كتبه عشرة من أصحاب رسول الله إلى عثمان ينكرون فيه سياسته ، فضربه من كان في حضرته من بني أمية ، وضربه عثمان معهم « حتى فتقوا بطنه فغشى عليه ، فجروه حتى طرحوه على باب الدار » . وروى بعضهم أن عثمان أجاز الرجم . ومن المآخذ التي أخذوها عليه أنه استعمل أقرباءه وأهل بيته في السنين الست الأخيرة من خلافته، بينما عزل رجالاً أكفياء أثبتوا قدرتهم في القيادة والإدراة وقد كان لهذا التصرف أكبر الأثر في تحريك عوامل السخط عليه في الأمصار الاسلامية ، وتنمية روح العداء عليه في قلوب المسلمين .

حركة السبئية :

هم أتباع عبد الله بن سبأ ، وكان يهودياً من أهل صنعاء ثم أسلم في الظاهر نفاقاً وذلك في زمن عثمان للكيد للإسلام ، وبث الفرقة بين المسلمين . عمد ابن سبأ إلى تأليب الأمصار على عثمان مستهدفاً إشعال نار الفتنة . فبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفة فالشام ، ولم يستطع في الشام أن يحقق أهدافه لانضواء أهلها تحت لواء معاوية ، فأتى إلى مصر ينشر تعاليمه الهدامة ، فذهب إلى القول

بمذهب الرجعة أي رجوع الرسول مرة أخرى ، كما قال بالوصاية ، ويذهب في ذلك إلى أن علياً كان وصي محمد ، واتهم عثمان بأنه انتزع من علي حقه ، فبث دعاته في سائر الأمصار يؤلبون المسلمين على عثمان ، وأخذوا يكتبون إلى الأمصار كتباً تتضمن عيوب ولاتهم .

وكان لا بد لعثمان من الاجتماع بعماله ، لبحث القضية في حضورهم ، فبعث يستقدمهم إليه ، فقدموا عليه ، وسألهم عثمان عن حقيقة الأوضاع في الأمصار وعما أشيع فيها من مساوىء العمال ، فأجمعوا على أنها فرية وأراجيف مغرضة . ولقد نجحت السبيئة فعلاً في تحقيق أهدافها من إثارة الفتنة التي انتهت بالاطاحة بحكم عثمان .

قضية وفد مصر :

في سنة ٣٥ هـ خرجت جماعات من الثوار على عثمان من مصر والكوفة والبصرة إلى المدينة لتطالبه بالإصلاح ، وتفصيل الأمر أنه لما انصرف عمال عثمان من المدينة عائدين إلى مراكز أعمالهم انفرد معاوية بعثمان ، ودعاهُ إلى الخروج معه إلى الشام قبل أن يستفحل خطر الثوار ، فأبى عثمان أن يبيع جوار رسول الله بشيء فعرض عليه معاوية أن يبعث إليه جنداً من أهل الشام يقيمون في المدينة للدفاع عنه ، فاعترض عثمان . فلما يئس معاوية من إقناعه برأيه أخذ يتأهب للقفول إلى دمشق وقبل أن يرحل .قابل نفراً من المهاجرين فيهم علي وطلحة والزبير ، فأوصاهم بعثمان ، ثم هددهم قائلاً : « فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلاً ورجلاً » .

وكان السبئية قد تضامنوا فيما بينهم وأجمعوا على الوثوب على عثمان، غير أن ثورتهم لم يتهيأ لها أن تتحقق ومع ذلك فقد اتفق الساخطون على عثمان على السير إلى المدينة لمواجهة عثمان بما أخذوه عليه من مآخذ ، فخرج وفد في خمسمائة وقيل في ألف ، وقدم معهم محمد بن أبي بكر أحد زعماء الفتنة في مصر ، كما خرج كل من وفدي البصرة والكوفة في مثل هذا العدد ، وزعم هؤلاء الوافدون أنهم يريديون أداء العمرة . ولكنهم نزلوا المدينة وحاصروها فلزم أهل المدينة بيوتهم ، ثم توسط علي بن أبي طالب بين عثمان ووفد مصر ، فسأله أهل مصر أن يعزل عبد الله بن سعد ويقيم مكانه محمد بن أبي بكر ، فأبلغ علي عثمان بذلك ، وأقنعه به ، فعاد وفد مصر .

ثم أعلن عثمان أمام وفدي العراق بأنه تاب ثم بكى ، فرقّ الناس وبكوا حتى اخضلوا لحاهم . ولكن هذا الأثر الطيب الذي أحدثته خطبة عثمان لم يلبث أن تبدد وتلاشى عندما خرج مروان بن الحكم وخطب في قوم قدموا على باب عثمان .

ثم حدث أن عاد وفد مصر إلى المدينة حانقاً على عثمان ، وسبب ذلك أنهم لما شرعوا في القفول إلى مصر بعد أن ظفروا بعهد من عثمان بتولية صاحبهم محمد بن أبي بكر ، إذا هم بغلام أسود على بعير يخبطه كما لو كان يود الفرار . فاستوقفه القوم وفتشوه فوجدوا معه كتاباً صادراً من عثمان إلى عبد الله بن سعد ، مكتوباً به : « إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاقتلهم وأبطل كتابهم وأقر على عملك حتى يأتيك رأيي » . فانزعجوا لذلك وأقبلوا حتى قدموا المدينة . وكان وفدا العراق ما زالا يحاصران دار عثمان، فانضم

إليهم المصريون ، وأحكموا الحصار على الدار ، ومنعوا عن عثمان الماء والخروج هو ومن كان معه .

وبالاضافة إلى الأسباب سالفة الذكر نضيف أسباباً أخرى سياسية من بينها : ـ إحساس المسلمين في الأمصار الإسلامية بأن عثمان انتزع من عليّ حقه في الخلافة ، ثم إن أهالي الأمصار الاسلامية كانوا ينظرون إلى نظام الشورى على أنه سلاح قصد به إقصاء علي من الخلافة ، وهذا يفسر نجاح السبئية وانتصارها في العراق ومصر . أما الشام فقد كانت تربطه ببني أمية صلات تجارية وثيقة للغاية منذ العصر الجاهلي ، وقد أدرك رسول الله طبيعة هذه الصلات والروابط بين أهل الشام وبني أمية ، فاستعان بعمال من بني أمية لضم هذه البلاد للدولة العربية ، واشترك بنو أمية في حروب الشام اشتركاً فعلياً ولذلك اكتسب بنو أمية أدبياً في حروب الشام وأصبحوا موضع ثقة الخليفتين أبي بكر وعمر .

ومن الأسباب السياسية أيضاً حسد القبائل العربية لقريش لما أصابها من ثراء ولما كانت تتمتع به من نفوذ سياسي : ولهذا أخذت هذه القبائل تعلن سخطها على قريش خاصة بعد أن شهدت انقسام قريش على نفسها أمويين وهاشميين .

ـ ٣ ـ

مقتل عثمان

مطالبة الثوار بعزل عثمان وإبائه :

دخل وفد مصر برئاسة عبد الرحمن بن عديس على عثمان ، ثم

تحدث رئيس الوفد فذكر ما فعله ابن سعد بالمسلمين وأهل الذمة من استئثاره بالغنائم ، ثم ذكر قدومهم بنية قتل عثمان لولا أن توسط علي ومحمد بن مسلمة بينهم وبينه ، وأنهما ضمنا لهم تحقيق مطالبهم ، ولما عادوا في طريقهم إلى بلدهم رأوا غلام الخليفة ومعه كتاب عثمان علي خاتمة فقاطعه عثمان وأقسم أنه ما كتب ولا أمر ولا علم ، وأبى أن يخلع نفسه وقال: « لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله ، ولكني أتوب وأنزع » فأعلنوا عن تصميمهم فلما رأى علي ابن أبي طالب منهم ذلك الإصرار أخرجهم ، ثم مضى إلى داره . فكتب عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان وابن عامر وأمراء الأجناد يستنجدهم ، فلما وصل الكتاب إلى معاوية لم يبادر بنجدته، ولعله كان يهدف من وراء ذلك أن يترك عثمان دون نصرة فيقتله الثور ، وعندئذ يتولى معاوية المطالبة بدمه ، ويتخذ من المطالبة مبرراً لمحاربة من يتولى الخلافة من بعده ، بغية أن تؤول الخلافة إليه . فلما أبطأ أمر معاوية على عثمان كتب إلى يزيد بن أسد بن كرز القسري وإلى أهل الشام يستفزهم ويعظِّم حقه عليهم . ولم يتردد يزيد القسري في تلبية ندائه ، فجمع حشداً من الناس وسار إلى المدينة ، فلم يكد يصل إلى وادي القرى حتى بلغه نبأ مقتل عثمان ، فعاد بجموعة من حيث أتى .

كذلك لبى أهل البصرة نداء عثمان ، وخرج حشد كبير منهم فما كاد يصل إلى الربذة وصرار حتى أتاه نعي عثمان . ولما استبطأ عثمان وصول النجدات استدعى علياً إليه، فسأله أن يحميه . . خرج علي إلى الناس وطلب منهم أن يمهلوا عثمان ثلاثة أيام حتى يحقق لهم مطالبهم ، فكف الناس عنه . وفي أثناء ذلك أخذ عثمان يستعد

بالسلاح ، واتخذ جنداً ، فلما انتهى الأجل ولم يحقق الإصلاح المطلوب اشتد غضب الناس عليه ، وكان أكثر الناس تأليباً عليه طلحة والزبير وعائشة ، وطالبوا عثمان من جديد بأن يعزل عماله ويرد مظالمهم أو يخلع نفسه أو يقتلوه . فرفض عثمان . فعزم القوم على قتله إذ خافوا أن تأتيه نجدات ، فشددوا عليه الحصار ، وتولى الدفاع عن باب داره نحو مائة نفر على رأسهم الحسن بن علي وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن سلام ومروان بن الحكم وأبو هريرة .

ب ـ استشهاد عثمان :

منع الثوار الماء عن عثمان وأهل بيته ، ولكن علي بن أبي طالب وأم حبيبة زوج رسول الله كانا يبعثان إليه الماء، فمنعهما الثوار. وبينما كانت وفود مصر والعراق وجماعة من أهل المدينة يحاصرون عثمان إذ أتاهم آت ينذرهم بأن معاوية قد بعث من الشام يزيد بن أسد القسري ممداً لعثمان أربعة آلاف من خيل الشام ، فلما سمعوا ذلك عزموا على حسم الأمر بقتله ، فقوبلوا عند باب دار عثمان بمقاومة عنيفة ، فأشعلوا النار بالباب وعلى السقيفة المتصلة به .

ثم دخل عليه المغيرة بن شعبة وعرض عليه أن يفتح له خوخة فيخرجه إلى مكة أو ليلحق بالشام ، فأبى عثمان أن يخرج من دار الهجرة . وفي هذه الأثناء أصيب عدد من أبناء الصحابة بجراح بالغة، فاقتحم الناس دار عثمان. وأيقن عثمان أنه هالك لا محالة فأخذ مصحفاً فوضعه على حجره ليتحرم به . وكان قتله في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ .

ولما بلغ الخبر علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة من كبار الصحابة بهتوا ، فدخلوا عليه وأكبوا على جثته يبكونه ويعولون حتى غشي على علي . ولما أفاق عنّف ولديه لتفريطهما في الدفاع عن عثمان ، وقيل لطم الحسن . ثم تولى دفنه علي وطلحة وجماعة من الصحابة ، وكتبت نائلة إلى معاوية تصف مقتل عثمان وما صنع به ابن أبي بكر ، وأرسلت قميص عثمان ملطخاً بالدم ممزقاً ، والخصلة التي انتزعت من لحيته .

أما أهل المدينة فقد ندموا ، وتألمت السيدة عائشة إذ علمت بقتله وخرجت باكية تقول «قتل عثمان رحمه الله » فقيل لها « بالأمس تحرضين عليه واليوم تبكينه » . وكان لا بد للمسلمين من اختيار خلف لعثمان ، فأتوا علياً في داره ودعوه ليتلقى بيعتهم فأبى أن يبايعهم حتى يتم الأمر بطريق الشورى ، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى علي ، وترددوا على الأشتر النخعي الذي أخذ يمارس على عليّ نوعاً من الضغط ، ولم يزل به يكلمه ويخوفه من عواقب الفتنة حتى قبل عليّ بيعته ، ثم بايعه طلحة مكرهاً فالزبير فعامة الناس .

ـ ٤ ـ

الصراع بين علي ومعاوية وقيام الدولة الأموية

أ ـ نكث طلحة والزبير ببيعتيهما علي وامتناع معاوية عن بذل الطاعة :

لم تكن بيعة كل من طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام لعلي بالخلافة بيعة صادقة . وذكر ابن الأثير أن علي بن أبي طالب لم يكن

يرغب في الخلافة بعد مقتل عثمان ، فلما قدم إليه أصحاب رسول الله وطلبوا منه أن يقبل الخلافة زهد فيها قائلاً : « لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيت به » . ولما ألحوا عليه ، قال : « لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً » . وما زالوا به حتى بايعوه . وعندما بايعه طلحة والزبير قال لهما : « إن أحببتما أن تبايعاني وإن أحببتما بايعتكما » ، فقالا : « بل نبايعك » . ولم تكد تمضي على بيعتهما أربعة أشهر حتى هرباً إلى مكة، ونكثاً بالبيعة . وامتنع عدد من الصحابة عن مبايعة علي، وكانوا عثمانية .

أما طلحة والزبير وهما من أهل الشورى فقد بايعاه مكرهيْن وهما يطمعان في ولاية ، فالزبير كان لا يشك في ولاية العراق وطلحة في ولاية اليمن ، فلما تجاهلهما علي ، خرجا إلى مكة ، فلقيا عائشة فسألتهما عما صنع الناس بعد مقتل عثمان فأجابها طلحة : « بايعوا علياً ثم أتوني فأكرهوني وليّبوني حتى بايعت » . فقالت : « وما لعلي . يستولي على رقابنا لا أدخل المدينة ولعلي فيها سلطان » ، فرجعت . فلما أتاها خبر أهل الشام بأنهم ردوا بيعة علي عندما أرسلها وأبوا أن يبايعوه، أخذت تدعوا لطلب الثأر من قتلته. وكان لا بد لعلي أن يستقر على رأي في مشكلة عماله على الأمصار ، وأبى أن يداهن معاوية ويلجأ إلى الخداع لأمرين : الأول أنه كان على يقين بأن معاوية كان يخطط لنفسه مقدماً للظفر بالخلافة والاحتفاظ بها في البيت الأموي .

لهذا كان على عليّ أن يبادر بمواجهة خطط معاوية قبل أن يفلت منه زمام المبادرة ، ولهذا فرق عماله على الأمصار . والأمر الثاني أن علياً لم يخرج عن تطبيق السياسة الإسلامية التي جرى عليها قبله

أبو بكر وعمر ، وكانت أولى خطواته في ذلك وهي عزل ولاة عثمان أمراً طبيعياً وتطبيقاً سليماً لسياسته الإسلامية ، وإذا كان هناك من يتهم هذا التصرف بأنه جاء نتيجة تفكير متسرع بعيد عن الدهاء السياسي فهو اتهام باطل . فقد جاء علي في وقت بلغ فيه الاتجاه القبلي ذروته ، عندما طالب أفراد البيت الأموي وأشياعهم بدم عثمان دون أن يتركوا هذه المهمة على عاتق الدولة ، وهكذا اصطدام علي في بداية خلافته بالتيار القبلي ، كان عليه أن يغادر المدينة بعد ذلك لمحاربة الخارجين عليه ، ولكن الظروف أرغمته إلى قصد الكوفة التي تموج بالتيارات القبلية ، وهناك تحكمت فيه أهواء شيعته ، وكلهم ممن يفكرون بمصلحتهم وبمصلحة إقليمهم ويريدون الاحتفاظ بتنظيماتهم القبلية، وعلى هذا النحو لم تناسبهم الاتجاهات الاسلامية التي جْرى عليها علي ، ولم تلبث اتجاهاته أن اصطدمت مع اتجاهاتهم في عدة مناسبات .

لم يبدأ علي بمهاجمة معاوية في عرينه ، بل آثر أن يصطنع الرفق في معالجة أمور الخلافة ، فكتب إلى معاوية بدمشق كتاباً يمنيه فيه ويعده ويطلب منه بيعة أهل الشام ، كما كتب إلى أبي موسى الأشعري بالكوفة ، أما أبا موسى فقد رد عليه بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم ، وأما معاوية فلم يجبه بشيء ، . فكتب إليه مرة ثانية فتباطأ معاوية عن الإجابة عليه حتى مضت ثلاثة أشهر ، ثم دعا بطومار كتب فيه : من معاوية إلى علي ـ أما بعد ، فإنه :

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب

وعندئذ تكشفت لعلي نوايا معاوية العدائية وعزمه على مواجهته ، ولما كان من العسير على عليّ أن يواجه معاوية ومن ورائه

أهل الشام ، كتب إلى معاوية كتاباً فلما اطلع معاوية أمر بطومارين وصل أحدهما بالآخر ولفّا ، ولم يكتب فيها شيئاً إلا « بسم الله الرحمن الرحيم » . ويذكر المؤرخون أن علياً عزم على غزو الشام لإخماد فتنة معاوية ، فأخذ يجهز حملته فدفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنيفة . بينما كان في طريقة إلى الشام إذ وصله كتاب من أخيه عقيل يخبره بأن طلحة والزبير نكثاً ببيعتهما له وانضمت إليهما عائشة ، وأنهم خرجوا في جموع كثيفة نحو البصرة ، . فاضطر عليّ إلى تغيير وجهته إلى الكوفة .

وكانت عائشة أول من طالبت بدم عثمان على الرغم من أنها كانت من أكثر خصومه عداءً له ، وقد استجاب لها عبد الله بن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة ، وتبعه عدد كبير من بني أمية على ذلك ، وتبعهم المغيرة بن شعبه وسعيد بن العاص ، كما قدم إليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ، ويعلي بن منية من اليمن . ثم قدم إليها طلحة والزبير واستقر رأي الجميع . وما إن وصلت عائشة ومن معها إلى نواحي البصرة ، وحتى وقع الاشتباك بين أتباع علي وعلى رأسهم عثمان بن حنيف وبين أتباع عائشة وطلحة والزبير في ٢٥ ربيع الآخرة سنة ٣٦ هـ ، وانتهت الاشتباكات بهزيمة أتباع علي .

ب ـ موقعة الجمل :

ما كاد علي يصل إلى الزبدة حتى أرسل رسولين من قبله إلى الكوفة لدعوة أهلها إلى نصرته ، ثم تابع علي سيرهُ إلى البصرة حتى بلغ ذا قار ، فسيّر إلى الكوفة ولده الحسن في صحبة عمار بن ياسر فعادا ومعهما

من أهل الكوفة نحو تسعة آلاف .

وبلغت عدة من انضم إليه بعده وصوله إلى ذي قار عشرين ألفاً ، فنزل الخريبة . ولما بلغ ذلك طلحة والزبير قاما بتعبئة حشودها وعدتها على ما رواه المؤرخون ثلاثون ألفاً ، وعز على عليّ أن يقاتل السلمون بعضهم بعضاً ، فأقام ثلاثة أيام ورسله تتردد على أهل البصرة يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة والدخول في الجماعة ، ولكنهم لم يستجيبوا لندائه ، فزحف بقواته لخوض المعركة في ١٠ من جمادي الآخرة ، فلما دنت صفوفه من صفوف خصومه ، وعائشة في هودجها يحمله جمل مجفف بتجفاف الحديد ، دعا القوم إلى الصلح وناشدهم حقن الدماء ، ولكنهم أصروا على الحرب ، فطلب عليّ من طلحة والزبير أن يَدْنُوَا منه ليتحدث إليهما، فَدَنوَا منه . ثم ذكّر عليّ الزبير بأمور جرت في حياة رسول الله عندما قال ﷺ موجهاً حديثه للزبير بعد أن رآهما يحبان بعضهما بعضاً : « أما إنك تقاتله وأنت ظالم له » . فلما ذكَّره علي بذلك أبدى الزبير أسفه وأقسم ألا يقاتل علياً أبداً ، ولكن ابنه عبد الله أثناه واتهمه بالجبن ، فأحفظه هذا الإتهام . وكفَّر عن يمينه لعلي بأن أعتق غلامه مكحولاً ، وقيل أن الزبير أقبل إلى ولده عبد الله فأفضى إليه برغبته في الانصراف من المعركة ، فأبى عبد الله فتركه الزبير ومضى نحو البصرة وقد عقد النية على العودة إلى الحجاز .

وقع الاشتباك في أواخر شهر جمادي الآخرة سنة ٣٦ هـ ، وكانت المعركة عنيفة انتهت بهزيمة الحلفاء الثلاثة ، واشتد القتال حول هودج عائشة ، وكثرت فيه السهام وحماها مروان في جماعة من قيس وكنانة وبني أسد ، فأحاط بهم علي ابن أبي طالب ، وأرسل

رجلاً من أهل الكوفة يقال له أعين بن ضبيعة فعرقب جملها فسقط الجمل وله رغاء ، فمال الهودج بعائشة ، فأذن علي لمحمد بن أبي بكر بأن يتقدم إلى أخته وينزلها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي ، ثم أتاها هناك وقال لها : إيها يا حميراء ، ألم تنتهي عن هذا المسير ، فقالت يا ابن أبي طالب ، قدرت فأسجح » . فقال : أخرجي إلى المدينة وارجعي إلى بيتك الذي أمرك رسول الله أن تقري فيه ، فقبلت، ثم جهزها علي بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع ، وذكروا أنه سيّر معها سبعين امرأة من عبد القيس في ثياب الرجال حتى وافوا بها إلى المدينة ، كما أمر علي محمد بن أبي بكر بأن يوصلها إلى المدينة . ونهى عليّ أصحابه عن قتل جريح أو أسير أو فار، فلما عرض عليّ عليهم أن يبايعوه أجابوا إلى ذلك ، فأخلى سبيلهم .

ج - موقعة صفين :

في الوقت الذي كان علي يواجه المشاكل التي ترتبت على مقتل عثمان كان معاوية ابن أبي سفيان يجمع صفوفه في بلاد الشام ويؤلب أهلها على عليّ ، ويتهمه بأنه تستر على قتلة عثمان ، ومبالغة منه في استثارة أهل الشام على عليّ واجتذابهم حوله ، نصب قميص عثمان وقد خصب بدمه على منبر دمشق ، نجح معاوية في خطته نجاحاً لم يكن في الحسبان ، وأقسم رجال منهم أن لا يمسهم الماء إلا للغسل من الجنابة وأن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ، كما أجمعوا على مبايعة معاوية أميراً عليهم .

وكان علي قد بعث بعد فراغه من الجمل إلى جرير بن عبد الله

البجلي وكان عاملاً لعثمان على همذان ، وإلى الأشعث ابن قيس وكان عاملاً لعثمان على أذربيجان ، يأمرهما بأخذ البيعة والحضور عنده ، فقدما إليه ، فسير جرير رسولاً إلى معاوية يدعوه إلى الدخول في طاعته والبيعة له أو الإيذان بحرب . فلما بايع أهل الشام لمعاوية بالخلافة أرسل جريراً إلى علي يخبره أن معاوية وأهل الشام لا يجيبونه إلى البيعة . ثم عزم معاوية على السير إلى صفين ، فسار في ٨٣ ألفاً من أهل الشام ، في النصف من المحرم .

أما علي فقد تجهز للسير نحو الشام عن طريق الجزيرة . ثم واصلت قوات علي السير حتى انتهت إلى موضع يدعى سور الروم ، وكان معاوية قد زحف بجيوش الشام حتى وصل صفين ، وأمر معاوية أبا الأعور السلمي بأن يمنع من أراد ورود الماء من جيش العراق ، لكن قوات علي تمكنت من مهاجمة أبي الأعور السلمي ونجحت في التغلب على الماء ، ولكن علي أمر بألا يُمنع أهل الشام من وروده ، فكانوا يسقون جميعاً ويختلط بعضهم ببعض ، وقضى الفريقان شهر المحرم من سنة ٣٧ دون حرب طمعاً في الصلح ، واختلفت بينهما الرسل ، ولكن هذه المفاوضات لم تسفر عن أي نتيجة ، وتم الاشتباك في أول صفر ، وفي اليوم العاشر من بداية المعركة رجحت كفة علي ، وأوشكت قوات معاوية وعمرو ، فلما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهزيمة عمد إلى اصطناع الخديعة ، فأمر برفع المصاحف على الرماح والمناداة بتحكيم الله بين معاوية وعلي . وكان عمرو يرمي من وراء رفع المصاحف على الرماح إحداث إنقسام في صفوف جيش علي . وهكذا وضع علياً بذلك موضعاً حرجاً .

ولقد فطن علي إلى الخدعة ، فأقبل على أصحابه يحذرهم من المكيدة ، ولكن نفراً من رجاله ، هددوه إما أن يجيب إلى كتاب الله إذ دُعي إليه أو يفعلوا به كما فعلوا بابن عفان، وعز على عليّ أن يخيره رجاله بين الأمرين، فتركهم أحراراً، فاختاروا التحكيم، ثم وقع اختيارهم على أبي موسى الأشعري ممثلاً لأهل العراق في التحكيم ، وعمرو بن العاص ممثلاً عن أهل الشام .

ثم أمر علي بالرحيل بسبب اختلاف الكلمة وانقسام الصفوف ، فمضى علي إلى الكوفة ، بينما لحق معاوية بدمشق . ولكن المعارضين للتحكيم خرجوا على علي، فلما دخل علي الكوفة لم يدخلها الخوارج معه ، فلحقوا بقرية حروراء . وعرفوا بالحرورية نسبة إلى هذه القرية ، وهم أول من أنكر تحكيم الرجال من أصحاب علي ، ونادوا بشعارهم « لا حكم إلا لله » .

كان قبول علي للتحكيم أول وهن أصاب مركزهُ كخليفة للمسلمين ، وقد ترتب على ذلك ظهور حركة الخوارج أو المحكِّمة ، التي تعتبر في حد ذاتها ثورة على استئثار قريش بالسلطة . وسبق صدور الحكم مداولة بين الحكمين اتفقا خلالها على خلع علي ومعاوية وترك الخلافة شورى بين المسلمين . ثم عقد الحكمان في صباح اليوم التالي مجلساً لإصدار الحكم في المسجد الجامع حضره عدد كبير من المسلمين ، فقدّم عمرو أبا موسى عليه في الكلام تظاهراً باحترامه لكبر سنه حتى يبدأ بإعلان خلع علي ومعاوية ، فصعد أبو موسى المنبر وقال : « وأني قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من أحببتم » ، ثم نزل ، فصعد عمرو ، وخاطب المسلمين قائلاً : « وأني قد خلعت

صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي أمير المؤمنين عثمان ، والمطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » ، وحاول أبو موسى تكذيب عمرو ، ولكن عمراً قال : « بل كذب عبد الله بن قيس ، قد خلع علياً ولم أخلع معاوية » ، وأنسل أبو موسى فركب راحلته وهرلا حتى لحق بمكة ، في حين انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة .

وكان معاوية قد أرسل بعد صدور قرار التحكيم جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو ابن العاص ، وكان يلي مصر في هذه الآونة محمد بن أبي بكر ، الذي أساء إلى العثمانية في مصر فثاروا عليه ، فاستغل معاوية هذه الفرصة ، وأمر عمراً بن العاص بقيادة حملة إلى مصر ، فسار عمرو إلى مصر وانضمت إليه العثمانية ، واشتبك مع قوات ابن أبي بكر ، وهكذا أصبحت مصر تابعة لمعاوية ، فولاها عمراً .

وقد ترتب على صدور التحكيم أن تضعضع مركز علي بن أبي طالب بانقسام أهل العراق على أنفسهم في الوقت الذي قوي فيه مركز معاوية بضم مصر ومبايعته بالخلافة ، بل إن معاوية لم يكتف بذلك الانتصار ، بل هاجم البصرة من مناطق نفوذ علي في العراق ، في سنة ٣٨ هـ ، ووزع جيوشه في العام التالي في العراق ، بعث معاوية بسر ابن أبي أرطأة للإغارة على الحجاز اليمن ، ودخل بسر المدينة ولم يقاتله أحد ، ثم سار إلى مكة وأكره الناس على البيعة لمعاوية ، ثم زحف إلى اليمن وقتل جماعات من الأبناء من شيعة علي باليمن . وهكذا استقر الأمر لمعاوية في الشام ومصر والحجاز واليمن وشمال الجزيرة . أما علي فقد شغل بمحارية الخوارج ، فاشتبك مع الحرورية ، في النهروان في سنة ٣٨ هـ وهزمهم . ثم

حارب علي خوارج الأنبار . كذلك ترتب على صدور قرار التحكيم انقسام وحدة المسلمين وتفتتها ونشوء الحزبية .

الهاشمية :

وهو حزب بني هاشم الذي كان قد انتصر لعلي باعتباره الخليفة الشرعي .

العثمانية :

هو الحزب المطالب بدم عثمانٍ الذي قتل ظلماً ، وهو نفس الحزب الذي ساند معاوية ، وتحول فيما بعد إلى الحزب الأموي ، وكان يعضده أهل الشام .

الخوارج :

وهو حزب المحكِّمة الذين أنكروا على عليّ قبوله بتحكيم الناس ، وكانوا يقولون بأنه لا حاكم إلا الله . وطالبوا باقامة الخلافة على أساس ديني ، على أن تكون حقاً لكل عربي ، وهم ذلك يخالفون نظرية الشيعة الذين يقصرون الحق في الخلافة على البيت الهاشمي ، وقد انقسم هذا الحزب فيما بعد إلى فرق كثيرة كالصفرية والنجدية والإباضية والأزارقة .

المرجئة :

وهم الحزب الذي نادى بترك الحكم لله يوم الحساب . وكانوا يتحرجون عن إدانة أي مسلم ، وقد اعتزل المرجئة الفتنة ولم يخوضوا غمارها ، ولم يتحيزوا لفريق على آخر ، وهم أساس المعتزلة الذي ظهروا في أواخر عصر الدولة الأموية .

الباب الثالث
عصر الدولة الأموية

الفصل السادس : الأحداث السياسية البارزة في عصر الدولة الأموية .

الفصل السابع : الحضارة الأموية .

الفصل السادس
الأحداث البارزة في عصر الدولة الأموية
قيام الدولة الأموية

١ ـ مظاهر تطلع معاوية بن أبي سفيان إلى الملك وهو بعد وال على الشام :

تولى معاوية بعد وفاة أخيه يزيدعلى دمشق وأعمالها ، ثم ولاه عمر الأردن ، فعمل معاوية على كسب رضاء الخليفة عمر ، فاهتم باستكمال فتح مدن الساحل وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة، ورأى معاوية ضـرورة اصطناع سياسة بحرية مجاراة للروم ، وعمل على صناعتها في مصر ، وتهيأ له على هذا النحو إنشاء عدد كبير من السفن ، وكتب إلى الخليفة عمر يسأله في أن يأذن له بغزو قبرص ، فرفض عمر بعد أن استشار عمرو بن العاص ، اضطر معاوية ، إلى أن يعدل من مظهره تشبهاً بحكام الروم ، حتى يفرض هيبته في نفوس سكان الشام ، وعلى الرغم من اتخاذه مظاهر الأبهة والترف فلم يطلق لنفسه العنان خوفاً من شدة عمر .

وما أن توفي عمر حتى أفصح معاوية عن نـواياه في الاستئثار بحكم الشام كله . وحقق أول مرحلة من هذا المخطط بعد مضي عامين فقط من خلافة عثمان ، إذ أسند إليه الخليفـة ولاية الشـام كلها ، وبدأ يحقق حلمه القديم في غزو الجزر القريبة من الساحل الشـامي ، فما زال يلح على عثمـان في غزوهـا حتى أذن له على شروط ، منها أن يحمل معه امرأته ، وأن يدعم الدفاع عن السواحل

قبل خروجه في الغزو ، وألا يكره المسلمين على الغزو معه . ففتح معاوية قبرص ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة . ثم كان انتصار الأسطول الشامي بقيادة معاوية بن أبي سفيان والأسطول المصري بقيادة عبد الله بن سعد على أسطول البيزنطيين في واقعة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ . وكسب معاوية بهذا الانتصار كسباً أدبياً كبيراً دعم مكانته في قلوب أهل الشام بوجه خاص ، وفي سبيل هذا الكسب اعتمد على العصبية اليمنية ، كما تقرب من العناصر المتنصرة من بقايا الغساسنة ، فتزوج من ميسون بنت بحدل أم يزيد .

وعندما عصفت فتنة الأمصار بالمدينة سنة ٣٤ هـ ، وتعرض عثمان لخطر الاغتيال ، ألح عليه أن ينتقل معه إلى دمشق ، ولكن عثمان رفض أن يترك دار هجرة الرسول ، والظاهر أن معاوية كان يهدف من وراء دعوته للخليفة الانتقال إلى دمشق أن يكتسب بوجوده سنداً روحياً يكفل له أن يظفر بالخلافة من بعده .

ب ـ مقتل علي بن أبي طالب وتنازل الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية :

اتفق ثلاثة رجال من الخوارج بعد وقعة النهروان بأشهر على قتل علي ومعاوية وعمرو في ليلة واحدة ، وهم : عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، والنزال بن عامر ، وعبد الله بن مالك الصيداوي ، فترصد عبد الرحمن بن ملجم علياً وهو مقبل ليؤدي صلاة الغداة ، فقام إليه ابن ملجم وضربه بسيف قد سم حده على رأسه ، حتى مات في ١٧ من رمضان سنة ٤٠ هـ .

أما الخارجي الثاني الذي تولى مهمة قتل معاوية ، وهو النزال بن عامر ، فقد أقبل في نفس الليلة إلى دمشق وهمّ بقتل معاوية وهو يصلي بالناس صلاة الصبح ، ولكنه أخفق ولم يصب السيف منه مقتلاً ، وعولج معاوية فبرأ .

أما القاتل الثالث فقد قصد عمر ابن العاص بمصر ، وكان عمرو يومئذ مريضاً ، وقد فوض خارجه بن خرافة العدوي ، بأن يصلي بالناس مكانه ، فضربه الخارجي بالسيف وقتله ظناً منه أنه عمرو بن العاص .

ولما دفن علي بن أبي طالب خرج ابنه الحسن إلى المسجد الجامع ، فاجتمع الناس إليه فبايعوه متحفظين ، وكانوا يميلون إلى الحسين ، ولكن الحسين أبى أن يبايعه القوم في حياة أخيه .

أما معاوية ، فقد بويع بالخلافة من جديد في بيت المقدس بعد أنْ قتل على ، ودعي بأمير المؤمنين ، ثم أقبل معاوية غازياً العراق بجيوش كثيفة . وبلغ ذلك الحسن وهو بالكوفة ، فخرج متجهاً إلى المدائن ، وكان في معسكر الحسن جماعة قد أخذوا بآراء الخوارج ، فقالوا « كفر الحسن كما كفر أبوه من قبل » فهاج الناس عليه ، وطعنه أحدهم في فخذه ، وعولج حتى برأ . ثم إنه كتب إلى معاوية وقد وافى الأنبار يتنازل له عن الخلافة بشروط منها : أن يعطيه معاوية ما في بيت مال الكوفة وقدره خمسة آلاف ألف ، وأن يحمل إلى الحسين كل عام ألفي ألف ، وأن يترك له خراج دار ابجرد من فارس ، وأن يكف عن سب أبيه ، فأجابه معاوية إلى شروط ، ولكنه أخل بالشرطين الأخرين .

وذكر ابن قتيبة أن الحسن اصطلح مع معاوية على أن يظفر معاوية بالإمامة ما كان حياً فإذا مات فالأمر للحسن . وتم تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية في ٢٥ ربيع الأول سنة ٤١ . أما معاوية فقد دخل الكوفة وبايعه الناس ، والتقى فيها بالحسن . ثم رحل الحسن إلى المدينة ، ورحل معاوية إلى دمشق ، وسمي هذا العام بعام الجماعة لاجتماع الأمة على خليفة واحد . من الأسباب التي حملت الحسن على تنازله عن الخلافة رغم اعتراض أخيه الحسين :

١ ـ كان الحسن ينفر من الحرب ويشفق على المسلمين من الفتن الدامية ، وكان قد شهد بنفسه عاقبة الفتنة الكبرى التي راح ضحيتها كل من عثمان وعلى ، وأدت إلى تجدد النزاع القديم بين بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وبين بني عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . كان الحسن يزهد في الخلافة وكان قد نصح أباه عليا بأن يقيل طلحة والزبير من بيعتهما، وأن يدع القوم يتشاورون عاماً كاملاً ، فإذا رفضوه رفضهم وإذا قبلوه قبلهم .

٢ ـ أراد الحسن أن يُخمد الفتنة الكبرى التي أطاحت بعثمان وعليّ على يديه ، إما لرغبة صادقة في حقن دماء المسلمين ، أو لاقتناعه بعقم أي محاولة للتغلب على أهل الشام ، الذي رجحت كفتهم بسبب تلاحمهم وتضامنهم أمام أهل العراق المنقسمين على أنفسهم .

٣ ـ لم يعد الحسن يثق بأهل الكوفة بعد ما فعلوه بأبيه في موقعة صفين وبعد أن انخذلوا عن الحسن وكرهوا القتال .

وهناك من يعزون تخليه عن حقه في الخلافة بأنه لم يكن مهيئاً

لحمل اعبائها ، لتفضيله الحياة السهلة وإسرافه في حياة اللهو لكننا لا نعتقد أنه تلخى عن الخلافة لرغبته في الحياة السهلة ، فهو لم يكن يتردد في حمل السلاح والتعرض للموت إذا ما اقتضى الأمر ذلك ، وقد رأيناه يدافع عن عثمان بن عفان حتى جرح ، ورأيناه في أهل العراق يسعى لمحاربة معاوية .

ج ـ خروج معاوية على تقاليد الخلافة الراشدة إلى اصطناع الملك :

وبتنازل الحسن عن الخلافة أصبح معاوية خليفة للمسلمين بإجماع الأمصار الاسلامية ، ومنذ هذه اللحظة أخذ يعد لحصر الخلافة في البيت الأموي ، وجعلها وراثية .

وقوى عزم معاوية على البيعة ليزيد ، ولكنه آثر التمهل والتؤدة حتى لا يثير عليه الحسن بن علي وأبناء الصحابة ، ورأى أن يترك إعلان ذلك إلى ما بعد وفاة الحسن ، ولهذا سعى سعياً حثيثاً إلى اهلاكه بالسم ، على يد زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس . وعندما علم معاوية بنبأ وفاته ، لم يخف فرحته بوفاته وسجد وسجد من كان معه .

وكان معاوية كما ذكرت يمهد للبيعة ليزيد ، فأراد أن يظهره أمام المسلمين بمظهر المجاهد المثاغر ، ويمحي من ذاكرة المسلمين ما عرف به يزيد من خلاعة ، وكان يزيد معروفاً عند المسلمين بلهوه ومجونه وعكوفه على الشراب .

فلما توفي الحسن في سنة ٤٩ هـ عزم معاوية على البيعة ليزيد ، فكتب إلى عماله يأمرهم بتقريظ يزيد ووصفه ، وأرسل

معاوية أثناء ذلك إلى مروان يأمره بأن يعد الناس نفسياً لقبول مبدأ تعيين يزيد ولياً للعهد ، إذ كان عرب الحجاز بوجه خاص غير مستعدين للنقلة من النظام القائم على الشورى إلى النظام الوارثي . وأعلن أبناء الصحابة استنكارهم لولاية العهد .

وكان لا بد من اصطناع اللين مع المعارضين من أهل المدينة ، فقدم بنفسه إلى المدينة في سنة ٥٠ هـ ، فعارضوه كلهم . ثم عاد معاوية إلى الشام ، وعاود مطالبة أهل المدينة بالبيعة لابنه ، واستخدم سعيد بن العاص عامله على المدينة وسائل العنف والغلظة في حمل الناس على مبايعة يزيد ، فاضطر معاوية إلى القدوم بنفسه إلى المدينة وهو ينوي إرغام المعارضين على قبول البيعة ليزيد ، فدعا بالمعارضين الأربعة وهم : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، فحضروا ، وسألهم في تقديم ابنه ولياً لعهده ، فلما أبوا ، دعا صاحب حرسه وأمره بأن يقيم على رأس كل منهم حارسين يحمل كل منهما سيفه ، حتى إذا ما اعترض واحد منهم على ما يقوله معاوية بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما . وأمر القوم بمبايعة يزيد . فبايع الناس . أمام سكوت ساداتهم .

وبذلك ثار معاوية على القاعدة سنها الخلفاء الراشدون واستحدث نظام الوراثة في الحكم . وإذا كان الشيعة قد انتقدوا معاوية لقيامة بأخذ البيعة لابنه يزيد ، فإنهم لم يلبثوا أن قبلوا مبدأ الوراثة وأخذوا به . الراشدون .

وكان النظام الوراثي في الحكم جديداً على المسلمين لم يألفوه

من قبل ، كان الناس ينقمون على بني أميـة تعصبهم للعرب على الموالي ، ونزوعهم للروح الجاهلية ، وميلهم لـلأبهة والـظاهر أن الوسائل الملتوية التي توسل بها معاوية في الوصول إلى الخلافة : من اصطناع الخديعة والمكر ، والدس ، والرشوة ، لتـأليب الناس على عليّ ، كانت عاملاً في ابتعاده عن المثل التي اتبعها الخلفاء الراشدون .

ومع انفراد معاوية ومن خلفه من بعده بالملك ، والاستئثار به بحكم العصبية ، فقد حصروا همهم على شهوات النفس وركـوب اللذات من معاصي الله ، مما أدى إلى الإطاحة بالدولة الأموية . أن السلطة التي مارسها معاوية كانت إحياء لنظام شيخ القبيلة الذي كان سائداً في جزيرة العرب قبل الإسلام .

د ـ جهود معاوية في تأسيس الدولة الأموية :

اتخذ معاوية مدينة دمشق مركزاً للخلافة الأموية، وأحاط نفسه بأبهة الملوك وجلالهم ، وكان مجدداً في نظم الحكمْ والإدارة ، فانه أول من اصـطنع المـوالي والنصارى في المنـاصب ، فكان كـاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي . وعلى حرسه رجـل من الموالي يقال له المختار وقيل أبو المخارق مالك وكان طبيبه ابن أثال نصرانياً ولّاه على خراج حمص ، واقتدى عماله على الأمصار به ، فكان زياد بن أبيه أول من دوّن الدواوين ووضع النسخ للكتب، ومعاوية أيضاً أول من وضع البـريد في الاسـلام ، وأول من اتخذ ديوان الخاتم وحزم الكتب ، ولم تكن تحزم من قبل . وهو أول من أذن في تجريد الكعبة ، وهو أول من اتخذ الحرس ، وأول من كانت

لـه الصوافي وهي الأمـوال التي كان يستصفيهـا لنفسـه من جميـع الولايات بعد استقطاع العطايا .

ومعاوية هـو أول من أدخل المقصـورة في المسجد ، كـذلك استحدثت المؤذنة في عهـد معاويـة وأصبحت عنصراً معمـارياً من عناصر الجامع . أما فيما يتعلق بالمباني الحربية ، فقد أبدى معاوية نشاطاً كبيراً في ترميم الحصون الساحلية ، وعمل على إعادة استطيان المدن التي خرج عنها البيزنطيون بعد الفتوحات الاسلامية .

وفي عهد معاوية اتسعت الدولة العربية ، فاستولى المسلمون في أواسط آسيا على هراة وكابل ، كذلك غزا عبد الله بن سوار العبدي بلاد السند مما يلي خراسان سنة ٤٣ ، وغزا عبيد الله بن زياد على تركستان ، وتمكن المسلمون من غزو بخاري وسمرقند . سنة ٥٠ هـ تمكن عقبة بن نافع من فتح برقة وزويلة وأفـريقية ، وأسس مـدينة القيروان .

وإلى معاوية يرجع الفضـل الأعظم في بنـاء البحريـة العربيـة الإسلامية وإنشاء أسطول بحري للمسلمين . فأمـر بجمع الصنـاع والنجارين فجمعوا ورتبوا في السواحل ، وكانت دار الصناعة في عكا ومصر ثم نقلت إلى صور .

وبفضـل هذا الأسـطول تمكن المسلمـون من الإستيـلاء على جزيرة أرواد سنة ٥٤ هـ، وجزيرة ردوس في سنة ٥٢ هـ، أما غزواته في الأراضي البيزنطية فعديدة ، فقد وجه منذ سنة ٤٣ قواده للإغارة على مسالح البيـزنطيين وحصـونهم فيما بين أنـطاكية وطـرسوس ، فأوغل المسلمون حتى بلغوا القسطنطينية .

الفتوحات الاسلامية في العصر الأموي

١ ـ اتساع الدولة العربية في شرق العالم الاسلامي :

فتح بلاد ما وارء النهر :

واصل العرب فتوحاتهم في العصر الأموي ، في الاتجاه الشرقي ، فاتسعت رقعة الدولة العربية اتساعاً كبيراً بفتوحات خراسان وتركستان وما وراء النهر من جهة ، وبفتوحات السند من جهة ثانية ، ففي عهد يزيد بن معاوية ، قام سلم ابن زياد عاملة على خراسان ، بفتح إقليم خوارزم وعبر نهر جيحون . وأخضع سكان سمرقند .

ولم تأخذ فتوحات العرب لبلاد ما وراء النهر مظهرها الجدي إلا منذ أن ولى الحجاج على خرسان القائد العربي الكبير قتينة بن مسلم الباهلي سنة ٨٦ هـ في أول خلافة الوليد بن عبد الملك ، وفي أول ولايته وجه قتيبة من مرو أخاه صالحاً فغزا بلاد فرغانة وافتتح كاسان وأورشت وخشكت مدينة فرغانة القديمة .

وفي سنة ٨٧ عزا قتيبة بيكند ، وفي سنة ٨٨ غزا نومشكت ورامثنة ، وفي سنة ٨٩ غزا بخاري . وظل قتيبة يوجه غزواته في بلاد الصغد في الأعوام التالية حتى استولى على العديد من مدنهم ، فافتتح سمرقند في سنة ٩٣ هـ ، وغزا فرغانة والشاش (طشقند) في سنة ٩٥ ، ففتح كاشان مدينة فرغانة وخنجدة ، وواصل الغزو فغزا كاشغر أدنى مدائن الصين ، ويذكر ابن الأثير أن ملك الصين (يوانغ جونغ) كتب يسأله أن يبعث قتيبة إليه رجلاً من أشراف قومه يخبره عن العرب ودينهم ، فسير إليه قتيبة عشرة رجال انتقاهم من بين رجاله

تتوفر فيهم البلاغة والعقل والصلاح والوسامة ، وقد نجح هؤلاء للنفر في سفارتهم وأرسل معهم ملك الصين بهدية . وهكذا كانت فتوحات قتيبة في بلاد ما وراء النهر فاتحة لاتصال العرب بالجنس التركي ، كما كان لجهود قتيبة الموفقة أعظم الأثر في إنشاء مراكز جديدة للثقافة العربية الاسلامية في وسط آسيا ، ولم يطل العمر بقتيبة حتى يستكمل فتوحاته في الصين ، فقد توفى الوليد سنة ٩٦ هـ وخلفه سليمان بن عبد الله ، وكانت بين قتيبة وسليمان مباينة ، خاف قتيبة أن ينتقم منه سليمان ، فهم بخلعه وهو بخراسان، فكره جنده ذلك وأجمعوا على خلع قتيبة وهاجموه واحتزوا رأسه . وكان مقتل قتيبة خسارة عظيمة للمسلمين فهو يعد من أعظم قواد الفتح الاسلامي ولا يقل في جهوده التي بذلها عن خالد بن الوليد .

فتح جرجان وطبرستان :

لما قتل قتيبة ولىّ سليمان يزيد بن المهلب على خراسان والعراق في سنة ٩٧ هـ فوجه يزيد همه لفتح جرجان وطبرستان . فسار إليها وابتدأ بقهستان فحاصرها ، فأرسل صول ، دهقان قسهتان ، إلى يزيد يطلب منه أن يصالحه ، فصالحه ودخل يزيد قهستان ، صلحاً . ثم زحف منها إلى جرجان ، فدعاه أهلها إلى الصلح فأجابهم إلى ذلك.

وأطمعه فتح جرجان في الاستيلاء على مدينة طبرستان الحصينة ، فلما زحف إلى طبرستان أرسل إليه الأصبهبذ صاحبها يسأله الصلح على أن يرحل عن طبرستان ، فأبى يزيد ، وصمم على فتحها ، وفي هذه الأثناء استنصر الأصبهبذ بأهل جيلان والديلم فانهزم المسلمون . فآثر يزيد أن يصالح الأصبهبذ فصالحه على

سبعمائه الف ، ثم استرجع يزيد جرجان . ثم نكث أهل جرجان وغدروا برجاله ، فسار إليها وحاصرها سبعة أشهر ، وافتتحها ثم أعاد جرجان ووضع الجزية والخراج على أهلها .

فتوح السند :

فلما تم للمسلمين في عهد الوليد افتتاح بلاد ما وراء النهر واستولوا على بخاري وسمرقند وخجندة ، وعبروا نهر سيحون ، ووصلوا إلى بلاد فرغانة وكاشغر على حدود الصين ، كان من الطبيعي أن يفكروا في فتح إقليم السند باب الهند الذي أصبح يجاوز آخر الحدود الشرقية للدولة العربية الاسلامية . وكانت أنظار المسلمين تتطلع إلى بلاد الهند منذ الفتوحات الاسلامية الأولى ، وظل المسلمون يغيرون على اقليم السند من جهة سجستان ، حتى كانت أيام الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق من قبل عبد الملك ابن مروان ، فأرسل إلى مكران سعيد بن أسلم الكلابي سنة ٧٥ هـ ، فلما بلغ الحجاج نبأ قتل سعيد الكلابي طلب من الوليد الإذن له بتسيير حملةالهند ، ولكن الخليفة لم يجبه إلى طلبه .

وما زال الحجاج يلح على الخليفة الوليد في أن يأذن له بفتح السند حتى أذن له ، فولى الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفي سنة ٨٩ قائداً على حملة سيرها لغزو السند . وزحف ابن القاسم بجموعه إلى مكران فأقام بها أياماً ثم رحل منها إلى الديبل ماراً بفنزوبور وأرمائيل فافتتحها ، وقطع بلوخستان حتى نزل على الديب . وهناك وافته سفن كانت مشحونة بالرجال والسلاح والعدد ، وانضم إليه جموع من الزط والميد ، فأفاد منهم فيما بعد في معرفة

مسالك الهند ، فخندق بالديبل ، وبدأ يحاصر المدينة وتمكن ابن القاسم من افتتاح الديبل عنوة ، ثم رحل إلى البيرون ، حيث صالحه أهلها بالأمان ، وجعل محمد بن القاسم لا يمر بمدينةإلا فتحها حتى اقترب من مهران ، فبلغ داهر ذلك ، فتأهب لتلقيه ، وفي هذه الأثناء سيّر ابن القاسم محمد بن مصعب الثقفي إلى سدوسان ، فصالح أهلها ، واضطر داهر إلى الاشتباك مع المسلمين في موقعة دارت بالقرب من حصن روار، واستخدم فيها الهنود الأفيال، وانتهت بهزيمة الهنود ومصرع ملكهم داهر.

ثم زحفت جيوش المسلمين إلى مدينة برهمنا باد العتيقة ، وافتتح المدينة عنوة ، وعامل رؤساء الهنادكة من رجال الدين بها معاملة حسنة ، وأطلق لهم حرية العبادة على أن يدفعوا ما فرضه عليهم من الجزية . ثم واصل الزحف إلى الرور عاصمة داهر ، ماراً بساوندري وبسمد ، فصالح أهليهما ، فأسلموا ، وانتهى محمد إلى الرور ، فحاصرها أربعة أشهر .

وما زال ابن القاسم يفتتح المدن والمعاقل حتى قطع نهر بياس ، ووصل إلى مدينة الملتان أكبر مدن السند ، وطال حصار المسلمين للمدينة وأقبل عليه بالملتان عدد كبير من الأعيان بعد أن سمعوا عن تسامحه وعدله، وكان هؤلاء السكان يعانون كثيراً من جور البراهمة ، ولم يقنع ابن القاسم بما وصل إليه من فتوحات وكان يتطلع إلى فتح إمارة كنوج أعظم إمارات الهند ، فأخذ محمد بن القاسم يتأهب لما هو مقبل عليه عندما وصلته وهو بالملتان الأنباء بوفاة الحجاج في شوال سنة ٩٥ هـ . توفي الوليد في سنة ٩٦ هـ وآلت الخلافة إلى أخيه

سليمان الذي كان ينقم على الحجاج وصنائعه ، فولى سليمان على السند بن أبي كبشة بدلاً من ابن القاسم السكسكي وأمره بأن يبعث به مقيداً إلى الشام .

ولم يكد ابن أبي كبشة يقضي في السند ثمانية عشر يوماً حتى مات ، واستغل جاي سنك (جيشبة) ابن داهر هذه الفرصة فوثب على برهمنا باد واستردها . فأرسل سليمان حبيب بن المهلب ، فنزل على شاطىء مهران ، وأخضع أهل الرور .

ثم آلت ولاية السند في عهد هشام بن عبد الملك إلى جنيد بن عبد الرحمن المري ، ونجح جنيد في بث السرايا والغارات حتى بلغت غزواته يوجين ومالوه والكجرات في شرق السند وجنوبه الشرقي . ثم تولى تميم بن زيد العتبي ، وفي أيامه زاد خروج المسلمين عن بلاد الهند ، إلى أن تولى إمارة المسلمين الحكم بن عوانة الكلبي ، وقد أسس الحكم مدينة إسلامية بالقرب من شاطىء السند غير بعيد من برهمنا باد سماها المحفوظة ، كما بنى مدينة لا تبعد عن المحفوظة سماها المنصورة .

ب ـ اتساع رقعة الدولة العربية في غرب العالم الاسلامي :

(١) فتوح المغرب :

تمكن المسلمون في حملة عبد الله بن سعد على إفريقية من التغلب على جريجوريس وقتله، وانتهت الحملة باستيلائهم على سبيطلة ، وشغل العرب بعد ذلك بفتنة الأمصار ، ولم يعاودوا الإغارة على إفريقية منذ سنة ٣٨ هـ ، وهي السنة التي تولى فيها

عمرو ولاية مصر من قبل معاوية . وتمكن قائدة عقبة بن نافع من فتح غدامس وودان سنة ٤٢ هـ .

ولما توفي عمرو بن العاص في سنة ٢٣ (٦٦٤ م) فصل معاوية ولاية إفريقية عن مصر ، واعتبرها من بين الولايات الاسلامية التي تتبع دمشق مباشرة ثم ولىّ معاوية بن حديج التجيبي رئيس حزب العثمانية في مصر على قيادة الجيوش في إفريقية متجاهلاً بذلك عقبة بن نافع الذي كان ما يزال يقوم بالغزوة في نواحي برقة والواحات.

المرحلة لأولى :

أن نزاعاً شديداً بين البيزنطيين وأهل إفريقية كان يقسم البلاد ويمزق أهلها شيعاً وأحزاباً ، إذ كان الامبراطور البيزنطي في ظروف مالية سيئة مما اضطرهُ إلى الضغط على سكان إفريقية ، وقد حمل ذلك أهل هذه البلاد إلى اعتبار العرب منقذين لهم مما كانوا يلاقونه من نير الروم.

خرج معاوية بن حديج من مصر في سنة خمس أربعين على رأس جيش ضخم لغزو إفريقية ، حتى وصل إلى قرطاجنة ، وكان الامبراطور البيزنطي قد سبق المسلمين فأرسل إلى إفريقية بطريقاً يقال له بجفور (لعله نقفور) في ثلاثين ألف مقاتل لإرغام الأهالي على دفع الجزية ، فلم يلبث جيش ابن حديج أن اشتبك مع جيش نجفور في قمونية ، فانهزم البيزنطيون ، فقدمت قوات ابن حديج شمالاً ومن هناك سير جيشين ، أحدهما بقيادة عبد الله بن الزبير ووجهات سوسة ، تمكن من الاستيلاء عليها بسهولة ، والثاني بقيادة عبد الملك بن مروان ووجهته جلولاء . ثم مضى معاوية بن

حديج شمالاً وافتتح بنزرت . ويذكر البلاذي أنه غزا صقلية لأول مرة في سنة ٤٦ هـ ، ثم اختتم غزواته في أفريقية بفتح جربة .

المرحلة الثانية :

خرج عقبة إلى المغرب في سنة ٤٩ بعد رحيل معاوية بن حديج إلى مصر ، فافتتح ودان وجرمه وفزان وخاوار . ثم عاد إلى سرت وخرج بجيش ضخم إلى أفريقية حتى وصل إلى غدامس فافتتحها ، وافتتح وقفصة وقصطيلية من إقليم الجريد . فرأى عقبة أنه لفتح هذه البلاد يتحتم على العرب إنشاء قاعدة عربية إسلامية في إفريقية أو معسكراً ثاتباً للمسلمين ، فاختط القيروان سنة ٥٠ ، وسوّرت المدينة بسور من اللبن والطين . وقدر للقيروان أن تصبح حاضرة المغرب الإسلامي كله في عصر الخلافة الأموية .

المرحلة الثالثة :

لم تطل ولاية عقبة على أفريقية أكثر من خمس سنوات ، فقد عزله معاوية نتيجة لسعايات مسملة بن مخلد الأنصاري والي مصر ، وأقام مسلمة على إفريقية مولاه أبا المهاجر دينار .

وكان أبو المهاجر يرى أن يصطنع بربر أفريقية، فيكسب مودتهم ويضمن عدم انحيازهم إلى البيزنطيين ، ثم ركز قواه إلى مهاجمة البيزنطيين ، وغزا قبائل أوروبا البربرية ، واستطاع بحسن سياسته أن يجتذب إليه كسيلة بن لمزم زعيم هذه القبائل ، وكان نصرانياً فأسلم ثم شن قرطاجنة هجوماً كبيراً في سنة ٥٩ (٦٧٩ م) ولم يتركها إلا بعد أن تخلى له البيزنطييون عن القسم الواقع جنوبي إقليم قرطاجنة .

المرحلة الرابعة :

لما توفي معاوية في سنة ٦٠ هـ وخلفه ابنه يزيد بادر بعزل أبي المهاجر دينار ورد عقبة إلى ولاية أفريقية ، فقدم إليها عقبة ، وخرج غازياً غزوته الكبرى التي وصل فيها إلى المحيط الأطلسي ومعه جموع من بربر أوروبا عليها كسيلة ، واشتبك مع البيزنطيين في باغاية وقرطاجنة واستولى عليها ثم حاصر المنستير ودخلها ، ودخل الزاب، ويبدو أنه أساء إلى كسيلة في هذه الآونة وأهانه، فخرج هو وأصحابه عن طاعته .

انطلق عقبة بجيشه مخترقاً أرض المغرب ، وانتهى إلى مدينة إيغيران على ساحل المحيط الأطلسي ، ثم عاد من حيث أتى ماراً بتارتاً ورباط شاكر حتى بلغ طنجة، فلما بلغ مدينة طنجة أرسل أكثر فرق جيشه من طريق آخر ولم يستبق معه سوى خمسة آلاف ، سار بهم إلى مدينة تهودة ، وما كاد يقترب منها حتى ألفى نفسه مطوقاً من حشود بربرية هائلة عدتها خمسون ألفاً يقودهم كسيلة ، ودارت بينه وبين كسيلة موقعة سريعة انتهت باستشهاده سنة ٦٣ ، فقرر زهير بن قيس البلوي نائب عقبة على القيروان ، أن ينسحب بالحامية العربية إلى برقة ، وأقبل كسيلة بعسكره فاستولى على القبروان في سنة ٦٤ هـ .

المرحلة الخامسة :

ثم توفي يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ وبويع لمروان بن الحكم ، وخلفه ابنه عبد الملك ، فبعث زهير بن قيس في حملة لا سترجاع القيروان سنة ٦٩ هـ ، فسار زهير واشتبك مع كسيله في موقعة عرفت

بساقية ممس ودخل زهير القيروان ، وفي أثناء عودته قطع عليه البيزنطيون الطريق عند درنة ، ولقي زهير حتفه .

ولما استشهد زهير ببرقة اضطربت بلاد المغرب من بعده ، واضطرمت بها نار الفتن ، وافترق أمر البربر ، وتعدد سلطانهم في رؤسائهم ، وظهرت من بينهم امرأة بربرية تزعمتهم يقال لها الكاهنة الزناتية . وانقضت بعد مقتل زهير أعوام أربعة توقف فيها الفتح لانشغال عبد الملك بن مروان بفتنة ابن الزبير في الحجاز والعراق . فلما قضى عبد الملك على الفتنة في سنة ٧٣ هـ لم يتردد في استعادة المغرب ، فسيّر قائداً قديراً هو حسان ابن النعمان الغساني ، فزحف إلى إفريقية ، وهاجم قرطاجنة ودخلها بالسيف . ثم تفرغ بعد ذلك لمواجهة الكاهنة واشتبك مع وقواتها في موقعة دارت على نهر يسمى البلاء ، فانهزم حسان ، وتراجع المسلمون إلى برقة .

المرحلة السادسة :

أقام حسان في برقة يتقرب النجدة التي وعده بها عبد الملك بن مروان ، فلما كانت سنة ٨٠ هـ ، أرسل إليه عبد الملك إمدادات ضخمة ، بعد أن قضى تماماً على حركات الخوارج في سنة ٧٨ هـ ، وأدركت الكاهنة بوصول هذه القوات عجزها عن مواجهتها ، فأخذت تتراجع موغلة في جبال أوراس ، وما زال حسان يطاردها حتى اشتبك معها في سنة ٨٢ هـ (٧٠١ م) فهزمها هزيمة نكراء . واستقامت البلاد لحسان ، فعزم على مواجهة البيزنطيين الذين استردوا قرطاجنة ، فما كاد يقترب منها حتى فر البيزنطيزن بحراً . فقرر حسان أن يقيم تجاه قرطاجنة مدينة إسلامية

تقع على البحر وتشرف على مدخل قرطاجنة ، فبنى تونس إلى الشرق من قرطاجنة .

وبعد أن فرغ حسان من القضاء على مقاومة البربر والبيزنطيين معاً وجّه عنايته لتنظيم البلاد إدراياً على نحو ما فعله العرب في مصر والشام والعراق بعد الفتوحات ، فدوّن الدواوين ، ونظم الخراج ، وبعث العمال على سائر بلاد المغرب ، وعمل على تعريب البلاد ونشر الإسلام ، فأقبل البربر على الاسلام في حماس منقطع النظير.

المرحلة السابعة :

ولم يتح لهذه السياسة الحكيمة التي أثمرت سريعاً أن تستمر ، فقد عزله عبد العزيز بن مروان والي مصر من قبل عبد الملك في سنة ٨٥ هـ ، وولى على إفريقية أحد ثقاته وهو موسى بن نصير .

وتابع موسى الفتوحات المغربية بنشاط وهمة ، فخرج غازياً إلى طنجة ، وقد عزم عزماً أكيداً على استكمال فتح المغرب كله ، وفي سبيل ذلك اتبع كل وسائل العنف والإرهاب مع البربر ، وعلى الرغم من أنه نجح في فتح المغرب كله إلا أن سياسته التعسفية مع البربر أدت مع مرور الزمن إلى إقامة حواجز فاصلة بين العرب والبربر وإلى إنحراف كثير من السكان إلى تقبل مذاهب ثورية من خارجية وصفرية وشيعية. ولم تستعص على موسى من بلاد المغرب سوى مدينة سبتة .

(٢) فتوح الأندلس :

كان يحكم سبتة من قبل القوط الغربيين حاكم يقال له جوليان ، كما كان يحكم اسبانيا القوطية ملك يقال له Roderick ويسميه العرب

لذريق كان حاكماً على قرطبة ، ثم وثب على العرش القوطي وانتزعه من الملك الشرعي غيطشة Witiza ، وتغلب على وقلة Achila ابن غيطشة ، ففر وقلة إلى المغرب ولاذ بيليان في سبته وحثه على مساعدته في فتح الأندلس ، فلم يجد يليان بدا من الاتصال بطارق بن زياد والي طنجة من قبل موسى بن نضير .

واختار موسى على الحملة التي أعدها لفتح الأندلس قائداً من قواده المعروفين بحسن القيادة والبلاء هو طارق بن زياد البربري ، وأبحرت حملة طارق من ميناء طنجة في ٥ رجب سنة ٩٢ هـ (أبريل سنة ٧١١ م) في السفن التي وضعها يليان تحت تصرف المسلمين وبعض السفن التي أنتجتها دار الصناعة بتونس ، فاستولى على قرطاجنة الجزيرة ، ثم اتجه غرباً إلى الجزيرة الخضراء .

ثم اشتبكت قوات لذريق مع وقوات المسلمين في ٢٨ من رمضان سنة ٩٢ هـ في موضع يقع على وادي لكة بالقرب من شذونة ، وانتهى بهزيمة لذريق ، واندفعت جيوش المسلمين حتى وصلت إلى طليطلة العاصمة ، فدخلتها في سنة ٩٣ هـ .

ثم عبر موسى بن نضير إلى الأندلس، وتعاون هو وطارق على افتتاح بقية الأندلس ، حتى أشرف القائدان على جبال البرت المطلة على بلاد غالة . وفي عهد عبد العزيز ابن موسى تم للمسلمين فتح بلاد غرب الأندلس سنة ٩٥ هـ (٧١٤ م) وشرق وجنوب شرق الأندلس في سنة ٩٦ هـ ، واتجه بعد ذلك إلى تنظيم البلاد وإدارة شؤونها . وقدر لمن خلفه من ولاة الأندلس أن يتوسعوا في جنوبي فرنسا .

أهم الأحداث السياسية في العالم الإسلامي

١ ـ أحداث المشرق :

(١) أحداث العراق :

لما توفي معاوية بن أبي سفيان كتب أهل الكوفة إلى الحسين بن علي يبايعونه بالخلافة . وفي هذه الآونة استدعاه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عامل المدينة وطالبه بالبيعة ليزيد ، فرحل إلى مكة أما ابن الزبير فقد سبق الحسين في الرحيل إلى مكة حتى لا يرغم على المبايعة ليزيد .

وما كاد الحسين يصل إلى مكة ، ويعلم أهل مكة بوصوله ، حتى بدأوا يترددون عليه ويجتمعون عنده دون أن يحفلوا بابن الزبير . ثم والاه أهل الكوفة بالمكاتبات العديدة يسألونه القدوم عليهم ليسلموا الأمر إليه . فرد الحسين على أهل الكوفة جميعاً بكتاب يخبرهم فيه بأنه سيرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليتحقق بنفسه من حقيقة مشاعرهم قبل أن يقدم هو (أي الحسين) عليهم .

ووصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة في ٥ شوال سنة ٦٠ هـ ، وبايعه من أهلها ثمانية عشر ألف رجل سراً للحسين ، وعلم النعمان بن بشير الأنصاري والي الكوفة بوصوله ، فوقف موقفاً سلبياً من مسلم . ولكن بعض أنصار الأمويين في الكوفة وعلى رأسهم عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي ، وعمارة بن عقبة كتبوا إلى يزيد بن معاوية يخبرونه بما قدم مسلم بن عقيل إلى الكوفة من أجله ، فكتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد عامله على البصرة بعهده

إليه في ولاية البصرة والكوفة معاً ، ويأمره بعزل النعمان والقضاء على مسلم . فلما علم مسلم بقدوم عبيد الله ، خاف على نفسه ، فلاذ بدار هانىء بن عروة المرادي ، وجعل الشيعة يختلفون إليه في دار هانىء ، فكان مسلم يبايع من أتاه منهم ويأخذ عليهم العهود والمواثيق المؤكدة بالوفاء . وعلم ابن زيادُ عن طريق جواسيسه أن مسلم ابن عقيل يقيم بدار هانىء ، فاستقدمه إليه ، فقدم إليه هانىء ، فأمره باحضار مسلم بن عقيل ، فامتنع عن دفع ضيفة حتى يموت دونه .

وعندما علم ابن عقيل أن هانئاً قد قتل دعا كل من بايعه من الشيعة ، فتجمعوا لديه ، ولكن ابن زياد أرسل إليهم من يخوفهم ، فتفرقوا عن ابن عقيل ، فلما ألفى نفسه وحيداً قد خذ له القوم مضى في أزقة الكوفة لا يدري إلى أين يذهب ، فانتهى إلى باب امرأة كندية فآوته ، ولكن إبنها مضى إلى ابن زياد ودله على مكان ابن عقيل ، وتم القبض عليه .

أما الحسين فلم تكن قد وصلته أخبار مسلم ، فاستبطأها وعزم على السير نحو الكوفة ، لأن مسلم بن عقيل كتب إليه باجتماع أهل الكوفة على بيعته ونصرته قبل موته .

فلما اقترب الحسين من القادسية لقيه نفر أبلغوه بمقتل مسلم بن عقيل ونصحوه بالعودة ، وظل كلما تقدم قليلاً أقبل عليه من ينصحه بالعودة ، ولكنه واصل السير . وكان ابن زياد قد وجه الحصين بن نمير حتى يمنع من يخرج من الكوفة لنصرة الحسين ، ثم سار الحسين في طريقه إلى الكوفة فاختار طريقه إلى كربلاء وهو في قدر ٥٠٠

فارس من أهل بيته وأصحابه ونحو مائة من الرجال . ثم أرسل ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف فارس ، فحاولوا بين الحسين وأصحابه وبين الشريعة وهي موضع الماء ، ثم نشب القتال في ٩ من المحرم وتكاثر عساكر الكوفة على الحسين وأصحابه ، فلم يزل أصحاب الحسين يقاتلون ويقتلون حتى لم يبق معه غير أهل بيته ، وظلوا يتساقطون الواحد بعد الآخر حتى لم يبق سواه ، فحمل عليه مالك بن بشر الكندي فضربه بالسيف على رأسه فقطعه وأفضى السيف إلى رأسه فجرحه ، ثم اشتد عليه الطعان وتكاثرت عليه عساكر ابن زياد فظل يقاتل حتى قتل ، واحتز القتلة رأسه وحملوها إلى ابن زياد بالكوفة ، فأرسلها إلى يزيد بدمشق .

ثم كانت حركة التوابين برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي تعبيراً عن ندم الشيعة على خذلانهم للحسين بن علي وسخطهم على بني أمية ، فاجتمعوا بالكوفة ، واتفقوا على الدعوة إلى جهاد الفاسقين قتلة سبط رسول الله ، والتوبة ، وتوليه سليمان بن صرد الخزاعي رئيساً لهم باعتباره شيخ الشيعة وصاحب رسول الله .

ثم ساروا للقاء قوات عبيد الله بن زياد ، فلما مر سليمان بقرقيسياء نصحه زفر بن الحارث الكلابي بالبقاء في هذه المدينة ، ولكنه أبى إلا قتال ابن زياد ، أقبلت قوات ابن زياد في جموع كثيفة عدتها ثلاثون ألف مقاتل من أهل الشام ، اشتبكوا معهم في معركة عنيفة انتهت بمصرع سليمان بن صرد وعامة زملائه وهزيمة التوابين .

وتبعت هذه الحركة حركة أخرى تنسب إلى المختار بن عبيد الثقفي . انتهز المختار فرصة الارتباك الذي ترتب على مقتل

الحسين بن علي في كربلاء ، وأدعى في الكوفة أنه موفد من قبل محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنيفة ، للأخذ بثأر الحسين ، ونجح المختار في ضم بقايا التوابين ، واستجاب له كثير من الشيعة ، وبفضل معونة ابن الأشتر تمكن المختار من اقتحام قصر الإمارة بالكوفة وطرد عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة ، وبايعه أشراف الكوفة . وأصبح المختار وقد غلب على الكوفة ودانت له العراق وأربيجان وهمان وأصبهان والري ، ثم عقد المختار ليزيد بن أنس الأسدي في عشرين ألف رجل .

سار يزيد حتى نزل نصيبين ، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان ، فسير ابن زياد بأهل الشام ، فوافى ابن زياد نصيبين وقاتل يزيداً بن أنس فهزمه . وبلغ المختار ذلك ، فعهد إلى ابراهيم بن الأشتر بقيادة جيش لمقاتلة عبيد الله بن زياد ، ثم التقى الجيشان في موضع يسمى خازر يقع قريباً من الموصل ، وأسفرت موقعة الخازر عن فوز المختارية والمضرية في آن واحد ، وأرسل ابراهيم رأس ابن زياد إلى المختار .

ولم يلبث أهل الكوفة أن قبلوا دعوة ابن الزبير عندما دعاهم إليها مصعب ابن الزبير في سنة ٦٨ هـ للتخلص من استبداد المختار ، وطلبوا من مصعب بن الزبير أن يخلص الكوفة من المختار الكاذب ، فزحف مصعب بجموع أهل البصرة واشتبك مع المختار في موقعة المار ، فانهزم المختار وتراجع إلى الكوفة ثم قتل . وهكذا خضعت العراق لابن الزبير .

وفي عهد هشام بن عبد الملك خرج زيد بن علي زين

العابدين بن الحسين ، الذي تنسب إليه فرقة الزيدية ، فعمل على التوجه إلى المدينة واتخاذها مركزاً له وسار إليها بالفعل ، ولكن أهل الكوفة تبعوه وحثوه على الذهاب إليها ، فعاد إلى الكوفة ، وعندئذ أفصح زيد عن حقيقة نواياه ، فتصدى له يوسف بن عمر الثقفي والي الكوفة سنة ١٢٢ ، غير أن أتباع زيد لم يلبثوا أن خذلوه وتفرقوا عنه ، فحارب في نفر قليل ، فأصيب بسهم ، ولكنه توفي من ساعته فدفنوه في ساقية ماء ، وعرف والي الكوفة موضعه ، فاستخرجه وقطع رأسه فأرسله إلى دمشق ، وصلب جسم زيد عارياً على جذع نخلة بكناسة الكوفة ، وظل مصلوباً خمسين شهراً حتى أمر الوليد بن يزيد بن عبد الملك بإحراقه ، وأذرى رماده في الرياح على شاطىء الفرات . وانقسمت الزيدية بعد استشهاد زيد إلى ثمان فرق هي : الجارودية ، والمرثدية ، والأبرقية واليعقوبية ، والعقبية ، والأبترية ، والجريرية ، واليمانية .

وفي عهد الوليد بن يزيد ظهر يحيى بن زيد علي بن حسين بالجوزجان من بلاد خراسان في سنة ١٢٥ منكراً للظلم فسيّر إليه نصر بن سيار سالم بن أحوز المازني ، فقتل يحيى في موقعة حدثت بقرية أرعوية ، فاحتز رأسه وحمل إلى الوليد . وأما جسده فصلب في الجوزجان ، وظل مصلوباً إلى أن ثار أبو مسلم الخراساني على الأمويين في خراسان ، فأنزله ودفنه .

(٢) أحداث الحجاز والشام :

خلا الجو لعبد الله بن الزبير بعد استشهاد الحسين بن علي في كربلاء ، فدعا وجوه أهل تهامة والحجاز إلى بيعته فبايعوه جميعاً

باستثناء عبد الله بن عباس ، ومحمد بن الحنيفة . وكان أهل المدينة لما شملهم جور يزيد وعماله وثبوا بعثمان بن محمد بن أبي سفيان عامل يزيد عليهم ، ومروان بن الحكم وسائر بني أمية وأخرجوهم من المدينة ، فلما بلغ يزيد مبايعة أهل تهامة والحجاز لابن الزبير أعد جيشاً ، لتأديب أهل المدينة ، والقضاء على حركة ابن الزبير ، وجعل على قيادته مسلم بن عقبة المري ، ولما بلغ أهل المدينة ، اتخذوا خندقاً يحيط بالمدينة . وأقبلت عساكر الشام من ناحية الحرة ، وأحدقوا بالمدينة من كل ناحية لا يجيدون منفذاً يدخلون منه ، ولما استعصى على مسلم اقتحام المدينة لجأ مروان ابن الحكم إلى الحيلة ، فدخلوا المدينة واشتبكوا مع أهل المدينة فانهزم هؤلاء ، وجالت خيول أهل الشام تقتل وتنهب .

ولما فرغ مسلم من قتال أهل المدينة ونهبها ، ومضى بجيشه نحو مكة فما كاد يصل إلى المشلل ، حتى اعتل ثم مات بعد أن استخلف على القيادة الحصين بن نمير السكوني ، فسار الحصين حتى قدم مكة ، وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبد الله بن الزبير ، وحاصر أهل الشام مكة ، وأخذوا يرمون البيت بالمجانيق فأصابت المجانيق ناحية من البيت فهدمته مع الحريق الذي أصابه وظل أهل الشام يحاصرون مكة ويرمونها بالمجانيق حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية في أول ربيع الآخر ، فتوقفوا عن القتال ، وأرسل الحصين إلى عبد الله يطلب مهادنته .

ثم بويع معاوية بن يزيد بالخلافة بالشام في الوقت الذي انضوى فيه أهل الحجاز إلى جانب عبد الله بن الزبير وبايعوه بالخلافة ، ولكن معاوية كان زاهداً ، ولم يلبث أن توفي بعد شهرين دون أن

يولي عهده لأحد من أبنائه أو أقاربه تاركاً الأمر شورى لينصب المسلمون على الخلافة من يرونه أهلاً لها .

فمنذ أن توفي معاوية بن يزيد التاث أمر الشام ، واضطربت أحواله ، وكثر الداعون إلى أنفسهم ، واجتمع الناس في الجابية ، فتناظروا في ابن الزبير ، وفي خالد بن يزيد بن معاوية ، وفي عمرو بن سعيد بن العاص . وفي البصرة طمع عبيد الله بن زياد والي البصرة في الخلافة ، وأراد ابن زياد أن يأخذ بيعة أهل الكوفة ، ولكن المختار طمع في ولاية الكوفة لنفسه ، ونجح في اجتذاب الشيعة إليه ، ثم خلع ابن الزبير وبايع محمداً بن الحنيفة . أما أهل البصرة فقد ثاروا على ابن زياد ، وكاتبوا ابن الزبير ، بينما فر ابن زياد إلى دمشق . كذلك بايع أهل مصر لابن الزبير كما دخل أهل فلسطين في طاعته . أما أهل الشام فقد انقسموا بعد وفاة معاوية بن يزيد إلى شيع وأحزاب ، وكان بعضهم يؤيد عبد الله بن الزبير ، ولم تبق ناحية إلا مالت إلى ابن الزبير باستثناء الأردن . وذكر أبو حنيفة الدينوري أن مروان بن الحكم نفسه كان على وشك اللحاق بعبد الله بن الزبير ليبايعه ، ثم خرج ابن زياد إلى الناس وناظرهم وعنفهم في تخاذلهم وحملهم على بيعة مروان ، فاجتمعوا وبايعوه .

ولكن الضحاك بن قيس الفهري استاء لخروج الأمر من الجابية إلى مرج راهط ، في جموع هائلة ، وذلك في المحرم سنة ٦٥ هـ . أما مروان فقد اجتمع إليه حشود فجعل على ميمنته عمرو بن سعيد ، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد ، واستغل يزيد بن أبي الغمس الغساني فرصة خروج الضحاك بن قيس من دمشق ، وأخرج عامل الضحاك منها ، وبايع لمروان .

ثم اشتبك الفريقان بمرج راهط ، انتهى بهزيمة القيسية ، وقتل الضحاك. وكان لموقعة مرج راهط آثار خطيرة في انبعاث العداء التقليدي وإشعال نار الفتنة في سائر أنحاء العالم الإسلامي .

وكان يلي مصر عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم من قبل عبد الله بن الزبير . فلما بويع مروان بالخلافة ، دعاه شيعته من أهل مصر إلى تخليص بلادهم من التبعية لابن الزبير ، فزحف مروان إلى مصر في جيش ضخم بقيادة خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد وعبد الرحمن بن الحكم وحسان بن بحدل ، وسار هذا الجيش بحذاء الساحل ، وفي نفس الوقت سيّر ابنه عبد العزيز في جيش إلى يلةَ وأمره بأن يدخل مصر من تلك الناحية ، فلما بلغ ابن جحدم ذلك بعث فرقة بقيادة السائب ابن هشام العامري ليقطع على مروان طريقه إلى مصر، كما بعث جيشاً إلى إيلة. ليمنع عبد العزيز بن مروان من المسير إليها. أما السائب فقد رجع بجيشه ولم يقاتل، وأما زهير فقد انهزم عند بصاق بالقرب من أيلة . ولما وصل مروان إلى عين شمس خرج إليه ابن جحدم في أهل مصر ، فاشتبكوا مع قواته ، ولكنهم انهزموا . وأخيراً تم الصلح بين مروان وأهل مصر ، وأقام مروان في مصر شهرين ، ثم أسند ولايتها إلى ابنه عبد العزيز ، وعزم على تولية العهد من بعده لابنه عبد الملك ، غضب خالد بن يزيد بن معاوية لخلعه عن ولاية العهد ، وحدّث أمه في ذلك وكان مروان قد تزوجها ، فعمدت أم خالد إلى قتل مروان ، وخلفه ابنه عبد الملك .
وافتتح عبد الملك عهده بمواجهة العديد من المشاكل ، فلم تمض على خلافته سنتان حتى فجع بقتل عبيد الله بن زياد ، ساعده الأيمن ، ورفاقه ، وهزيمة جيش الشام أمام قوات المختار في موقعة

الخازر ، ثم جاء خبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ، ومسير مصعب بن الزبير من المدينة إلى فلسطين . كما وأن الشام شهدت مجاعة وقحطاً ، وبدأ عبد الملك بناتل بن قيس ، فسار إلى لقائه ، فانهزم جيش ابن الزبير ، وقتل ناتل وعامة أجناده ، وانهزم الباقون .

وفي هذه الأثناء ولى عبد الله بن الزبير مصعباً على البصرة ، وكان قد انضم إليه عدد من أشراف الكوفة ، وطلب هؤلاء الكوفيون من مصعب أن يخلصهم من حكم المختار ، فجهز مصعب جيشاً ليزحف به نحو الكوفة ، والتقى الجيشان عند المذار ، فانهزم جيش المختار ، ثم تتبع مصعب الشيعة الخشبية وهم فرع من الكيسانية أتباع المختار بالقتل .

وكان عبد الملك بن مروان يترقب نتيجة الصراع القائم بين المختار ومصعب وكلاهما كان عدواً له ، وكان قد شغل في هذه الأثناء بمهادنة البيزنطيين ، دفع جزية سنوية إلى امبراطورهم جسيتنيان الثاني . وتصادف دخول الجراجمة في أراضي لبنان في سنة ٧٠ هـ في الوقت الذي حدثت فيه فتنة بدمشق ، فقد استغل عمرو بن سعيد بن العاص فرصة غيابه ودعا الناس بدمشق إلى البيعة ، فكر عبد الملك راجعاً ، وحاصر دمشق ودخلها ، ثم قتل عَمْراً بن سعيد .

ثم خرج على رأس جيوشه لمحاربة مصعب بن الزبير ، فتوافى العسكران بدير الحانات في سنة ٧٢ هـ ، فعمد عبد الملك إلى استمالة رؤساء جيش مصعب عن طريق الأموال ، ونجح عبد الملك

في خطته ، ثم دارت الموقعة بالقرب من دير الجاثليق في ١٥ جمادي الأولى سنة ٧٢ ، وانتهت بهزيمة مصعب ومصرعه ، ودخل عبد الملك الكوفة فبايعته أهلها.

ثم عهد الملك وهو بالكوفة إلى الحجاج بن يوسف بالسير إلى مكة والقضاء على حركة عبد الله بن الزبير ، فسار الحجاج إلى مكة في موسم الحج ، ونصب المجانيق على جبل أبي قبيس ، فاضطر عبد الله إلى الخروج للقتال مع جماعة من أتباعه ، حتى قتل في ٢٧ من جمادي الآخرة سنة ٧٣ هـ ، وأمر به الحجاج فصلب بمكة ، أما عزوة بن الزبير فقد فر من الحجاج إلى الشام .

ب ـ أحداث مصر والمغرب والأندلس :

تشدد عمال بني أمية في طلب الجزية من أهل مصر وبالغوا في ذلك ، فثار الأقباط في سنة ١٠٧ هـ ، فبعث إليهم الحر بن يوسف والي مصر العسكر لإخماد حركة القبط ، وفي المغرب احتج البربر على سياسة الاستبداد والعنف التي اتبعها معهم عمال بني أمية ، واستغل البربر فرصة خروج جيش العرب لغزو صقلية في سنة ١١٦ هـ وأعلنوا الثورة . واشتبك البربر مع العرب بالقرب من وادي شليف بتاهرت في معركة ضارية انتهت بهزيمة العرب، ووصلت أخبار الهزيمة إلى مسامع الخليفة فعزم على الانتقام ، وسير جيشاً ضخماً من الشاميين التقى مع جيش البربر بالقرب من تاهرت في بداية سنة ١٢٤ ، وفي هذه الوقعة هزمت جيوش العرب هزيمة شنعاء وقتل أكثرهم ، واتفق أن ثار بربر الأندلس على عربها تضامناً مع إخوانهم في المغرب ونجح عرب الأندلس والوافدين عليهم من

عرب الشام في القضاء على ثورة البربر في الأندلس في موقعة دارت في حوز طليطلة على وادي سليط ، وفي سنة ١٢٥ هـ .

ثم انقلب الشاميون في الأندلس على عربها البلديين وكانوا من أهل الحجاز ، واستولوا على السلطان ، وتحول النزاع بين البلديين والشاميين في الأندلس إلى صراع بين القيسية واليمنية ، انتهى بتغلب القيسية .

الفصل السابع
الحضارة العربية في عصر الدولة الأموية

ـ ١ ـ

النظم الإدارية

١ ـ الخلافة والوزارة :

تحول نظام الخلافة منذ قيام الدولة الأموية إلى ملك استبدادي وراثي ، فتولى الخلافة من بني أمية بنو حرب ثم بنو أبي العاص ، واستحالت الخلافة منذ ذلك الحين إلى ما يشبه نظام الملكية مع تسمك شكلي بفكرة البيعة التقليدية .

أما الوزارة فقد وجدت في العصر الأموي من حيث التسمية دون الاختصاص ، فقد كان طبيعياً بعد أن اتسعت رقعة الدولة العربي ، أن يحتك العرب بشعوب متحضرة لها أنظمة وإدارات متفوقة ، وأن يفيدوا من هذه الأنظمة سيما ما يتعلق منها بالدواوين وبعض النظم الادراية ، فأخذوا عن الفرس نظام الدواوين ، ثم اتخذوا الحاجب

ليقوم مقام الخليفة في بعض المهام بعد ذلك « ظهر المشاورو المعين في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم ، وأطلق عليهم اسم الوزير » .

ب ـ الدواوين :

رأينا فيما سبق أن عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام الديوان ، ولم يلبث نظام الديوان أن تعقد منذ عصر معاوية بن أبي سفيان ، فظهر عدد من الدواوين ، كل منها يختص بالنظر في شأن من شؤون الدولة .

١ ـ ديوان الجند :

وأول هذه الدواوين ديوان الجيش ، وهو نفس ديوان الجند أو ديوان العطاء .

٢ ـ ديوان الخراج والجبايات :

ويتولى تسجيل ما يرد عليها وما ينفق من الأموال ، وقد اقتبسه عمر بن الخطاب من الإدارة الفارسية، وكان ديوان الجند والأعطية بالعربية ، وديوان المال بالفارسية كما كان ديوانا الشام بالعربية والرومية وديوانا مصر بالعربية والقبطية أو اليونانية . فأمر عبد الملك في سنة ٧٨ سليمان بن سعد والي الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية . أما ديوان العراق ، فقد أمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن البصري ، أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية فعرّبه . أما ديوان مصر فقد أمر عبد الله بن الملك والي مصر من قبل أبيه بتعريبه ونتج عن حركة التعريب إنتشار اللغة العربية والخط العربي، ونشاط الترجمة.

٣ ـ ديوان الرسائل والكتابة :

وهو مستحدث في زمن معاوية ولم يكن موجوداً زمن الخلفاء الراشدين ، ويقوم متولي هذا الديوان بالإشراف على الرسائل الواردة من الولايات الإسلامية أو الموجهة من الخليفة إلى عماله ، ثم تعقد هذا الديوان ، وكثر عدد من يعملون فيه ، فوجد كتاب رئيسيون يقومون بالإنشاء ، وآخرون يساعدونهم في التلخيص والتبييض .

٤ ـ ديوان الخاتم :

أنشأه معاوية بن أبي سفيان حتى لا تخرج التوقيعات بدون ختم . وأصبح الديوان يضم عدداً من الكتاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم .

٥ ـ ديوان البريد :

استحدثه معاوية عندما اتسع نطاق الدولة . فكانوا يضعون مضمرات الخيل في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً .

ج ـ القضاء :

ظل القضاء في عصر دولة بني أمية بسيطاً كما كان في عصر الخلفاء الراشدين ، إذ لم تكن المذاهب الأربعة التي تقيد بها القضاة قد ظهرت بعد ، ولذلك كان القاضي يعتمد على الاجتهاد في الأحكام مستعيناً في ذلك بالكتاب والسنة والإجماع ، وكان القضاة مستقلين في آرائهم وأحكامهم . وينقسم القضاة في العصر الأموي إلى قضاة شرعي وقضاة مدني ، ولقد أفرد الأمويون للنظر في المظالم

ديواناً خاصاً يرجع الفضل في انشائه إلى عبد الملك بن مروان : ويعتبر عمر بن عبد العزيز أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها ، وراعى السنن العادلة وأعادها ، ورد مظالم بني أمّية على أهلها .

وكان يشترط فيمن يتولى القضاء سبعة شروط هي :

١ ـ أن يكون رجلاً .
٢ ـ وأن يكون عاقلاً .
٣ ـ وأن يكون حراً .
٤ ـ وأن يكون مسلماً .
٥ ـ وأن يكون عادلاً .
٦ ـ وأن يكون سليماً في السمع والبصر .
٧ ـ وأن يكون عالماً بالأحكام الشرعية ، أصول الأحكام في الشرع أربعة هي القرآن والسنة وتأويل السلف والقياس .

د ـ السكة :

رأينا فيما سبق أن عمر بن الخطاب أقر العملات الفارسية والبيزنطية مع إضافة بعض نقوش عربية مما يقتضيه الاسلام. وفي خلافة عثمان بن عفان ضربت دراهم نقشت عليها عبارة « الله أكبر » ، ولما تولى معاوية الخلافة ضرب دنانير إسلامية عليها صورته متقلداً سيفه . ويذكر المقريزي أن عبد الله بن الزبير ضرب دراهم مدورة ونقش على الوجه « محمد رسول الله » ، وعلى الظهر « أمر الله بالوفاء والعدل » ، كما ضرب أخوهُ مصعب بالعراق دراهم مماثلة ، ولم تعرف عند المسلمين عملة إسلامية خالصة إلا في عصر الخليفة

الأموي عبد الملك بن مروان ، ومن الملاحظ أن عصر عبد الملك شهد ظاهرة جديدة هي صبغ الدولة بصبغة قومية عربيـة في جميع الشؤون الإدارية والمالية ، فإليه يرجع الفضل في تعريب الدواوين وإليه ويرجع الفضل أيضاً في تعريب السكة الإسلامية .

ولقـد مر الاصـلاح النقدي الـذي قام به عبد الملك بن مروان بمـرحلتين قبل أن تـأخذ العمـلات الأمـويـة صـورتهـا الإسـلاميـة الخالصة . ففي المرحلة الأولى ضربت الدنانير الذهبيـة على غرار الفلوس البيـزنـطيـة ، وفي المـرحلة الثـانيـة استبعــد عبـد الملك التأثيرات البيزنطية منها .

هـ الطراز :

تخلى العرب بعد الفتوحات عن ثيابهم الخشنة ، وأقبلوا على التأنق في اللباس ، فازدهرت صناعة النسيج في أنحاء الدولة العربية .

اقتبس خلفاء الدولة الأموية الطراز من دولتي الروم والفرس . وكانت الدور المعدة لنسج الأثواب الخلافية في قصورهم تسمى دور الطراز الخاصة ، تمييزاً عن دور الطراز العامة التي تتولى صناعة ثياب الرعية ، وكـان يتولى النـظر على هذه الـدور قائم يسمى صـاحب الطراز .

وكانت مصر قبل الإسلام مشهورة بصناعة النسيج ، ولذلك عمد العرب إلى الإفادة من هذه الشهرة في كسوة الكعبة ، وشاع في عصر سليمان بن عبد الملك نوع من الترف والتأنق . فقد فرض على رجاله وأهل بيته وخدمة ارتداء الموشى لشدة ولوعه بهذا النوع من النسيج .

ـ ٢ ـ

شيوع الترف في المجتمع المدني

ترتب على فتح الشام ومصر والعراق وفارس أن تمرد العرب على بداوتهم بتأثير البيئات الحضارية الجديدة ورغبتهم في مجاراة أهل البلاد المفتوحة في مذاهبهم وعاداتهم ، ولكن عمر بن الخطاب نهاهم عن ذلك بأن فرض عليهم الإقامة في معسكرات خارج المدن . ثم تطورت الحياة الاجتماعية عند العرب في العصر الأموي ، « باتساع العيش والتفنن في أحواله ، ولقد أغرم العرب في العصر الأموي بفني الغناء والموسيقى بعد أن أثروا ، وكان فن الغناء والموسيقى قد ارتقى في هذا العصر عن طريق الأسرى الذين حملوهم معهم . ويرجع إلى الوليد بن يزيد الفضل في ازدهار فن الغناء والموسيقى حتى أصبح اسمه يقترن بهذا الفن ، فأطلق عليه إسم خليع بني مروان .

ويعتبر هشام بن عبد الملك أول من أنشأ لسباق الخيل حلبة . وفي عصر الدولة الأموية تنوعت الأطعمة والأشربة ودخلت في المآكل العربية أنواع فراسية ورومية ، وخاصة الحلوى .

ـ ٣ ـ

الحياة الفكرية

ازدهرت الحركة الفكرية في العصر الأموي وشملت مجالات العلوم الدينية واللغوية ، والتاريخ والجغرافيا ، والعلوم العقلية كالفلسفة والفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية .

١ ـ العلوم الدينية :

وهي أول ما عرفه العرب من العلوم ، فالمعروف أن الصحابة تفرقوا في الأمصار الإسلامية وكان أساسها القرآن والحديث والفقه ، وكانت مراكز هذه الحركة المدينة والفسطاط والبصرة والكوفة ودمشق .

وكان من أهم العلوم الدينية علم القراءات ويتناول هذا العلم أساليب قراءة القرآن نتيجة لانعدام التشكيل والنقاط ، ومن أئمة القراء في المدينة نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني ، وفي مكة عبد الله بن كثير مولى عمرو بن علقمة الكناني . ومن العلوم الدينية علم تفسير القرآن ، ومن أشهر المفسرين من الصحابة عبد الله بن عباس . وعن الصحابة أخذ التابعون ، وعن التابعين أخذ تابعو التابعين ، فجمعوا أقوال من تقدمهم وصنفوا التفاسير .

ومن العلوم الدينية الحديث ، ويراد به ما يروى عن الرسول من قول أو فعل ، وقد أخذ الناس الحديث عن الصحابة . ومنهم السيدة عائشة وعمر بن الخطاب وأبو هريرة ، ثم ظهرت طبقة التابعين الذين أخذوا الحديث عن الصحابة . ولم يدون الحديث إلا في أواخر القرن الثاني الهجري في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ومن أشهر المحدثين في العصر الأموي سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري بالبصرة (١٦١ هـ) وله من الكتب الجامع الكبير ، وأبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن ابن المغيرة (ت ١٥٠هـ) وله من الكتب كتاب السنن .

ب ـ علوم اللغة :

على الرغم من غلبة الأمية والبداوة على العرب في جاهليتهم ، فقد كانت لغتهم الفصحى هي كل ما حملوه معهم مع الإسلام من الجزيرة العربية إلى الأمصار ، وقد اضطر العرب بعد اختلاطهم بالروم والسريان ، وبالقبط ، وبالعجم ، وبالبربر ، إلى وضع قواعد للغة العربية لتحميها من اللحن والخطأ ، فظهرت مدرسة النحويين في البصرة ويرأسها أبو الأسود الدؤلي . وعنه أخذ الخليل بن أحمد ، ومن تلاميذ الدؤلي يونس بن حبيب . كذلك استحدثت الشريعة الإسلامية والنظم السياسية والإدارية في الدولة العربية ألفاظاً ومصطلحات لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وازدادت هذه المصطلحات بما نقله المسلمون عن اليونانية والفارسية ، وأدى لك إلى البحث في مفردات اللغة من حيث معانيها وأصولها واشتقاقاتها ، فظهرت المعاجم العربية ، وأول من وفق في جمع أول معجم في اللغة العربية الخليل بن أحمد الأزدي (ت ١٧٠) ، وهو أول من استخرج العروض وحصّن به أشعار العرب ، وصنف الخليل كتابه المشهور المسمى العين .

ج ـ علم التاريخ :

قامت الدراسات التاريخية باديء ذي بدء على دارسة سيرة الرسول وأخبار الغزوات ومن أسهم فيها من الصحابة ، وأخبار هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة ثم إلى يثرب ، ولذلك كانت مكة والمدينة المركز الرئيسي لنشاط هذه الحركة التاريخية . وكان المؤرخون يعتمدون على الروايات الشفوية ، وكان الخبر التاريخي

يستمد من السماع عند الحفاظ الموثوق بهم وهو ما يعرف بالاسانيد ، التي اعتبرت وقتئذ وسيلة للإجماع على صحة الخبر وهي نفس الوسيلة التي اتبعها المحدّثون في روايتهم للحديث . وأقدم الكتب التاريخية كتب المغازي والسيرة ، وكان من الطبيعي أن تتألق هذه الحركة في المدينة التي عاش فيها الصحابة . وينقسم مؤرخو السيرة والمغازي في مدرسة المدينة ومكة إلى ثلاث طبقات ، فبرز في الطبقة الأولى منهم عروة بن الزبير فروى عن أبيه الزبير ، وعن أمه أسماء وعن خالته عائشة أم المؤمنين.

ومن رجال الطبقة الثانية عبد الله بن أبي بكر بن حزم الأنصاري ، وابن شهاب الزهري . ومن رجال الطبقة الثالثة محمد بن اسحاق .

وظهرت في العصر الأموي أيضاً مدرسة للتاريخ في البصرة والكوفة ، تميزت بتناول الموضوعات االخاصة بالمعارك والفتوح الإسلامية ودراسة الأنساب ، نتيجة طبيعية للصراع الحزبي وللإقليمية وللقبلية ، ونفس الوقت وجد في هذه المدرسة كتّاب للسيرة والمغازي ، نذكر منهم معمر بن راشد اليماني البصري . ومنهم أيضاً سيف بن عمر الكوفي الأسدي .

ونلاحظ أن اهتمام العرب بأنسابهم في الجاهلية وضح بوجه خاصر عقب الفتوحات الأولى وذلك عندمت أنشأ عمر بن الخطاب الديوان وبدأ بالعباس عم النبي ثم يُبني هاشم ثم بمن بعدهم طبقة بعد طبقة مراعياً في ذلك الاعتبار الديني والقبلي ، واشتدت العناية بالأنساب أيضاً منذ أواخر العصر الأموي عندما قامت الخصومات

القبلية ، ونشأت الشعوبية ، ومن أشهر نسّابة العراق محمد بن السائب الكلبي .

أما بالنسبة للتاريخ العربي القديم الذي يتناول أخبار العرب في الجاهلية قد تم تدوينه في عصر الدولة الأموية عندما ثبتت دعائم الدولة العربية . ومن المؤرخين الذين اشتغلوا برواية أخبار العرب قبل الإسلام :

١ ـ عبيد بن شرية الجرهمي ، وذكروا أنه ألف لمعاوية « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ويغلب على هذه الأخبار الطابع القصصي المتأثر بالاسرائيليات .

٢ ـ وهب بن منبّه ، وينسبون إليه معظم الاسرائيليات الواردة في المصادر العربية ، ومن الكتب المنسوبة إليه « كتاب الملوك المتوجه من حمير وأخبارهم وقصصهم » . ويغلب على أخبار وهب طابع القصص الشعبي الخرافي .

د ـ علم الكلام :

ظهرت في العصر الأموي بعض حركات فلسفية دينية كالجبرية والقدرية المعتزلة . فالجبرية يقولون بأن إرادة الله مطلقة والانسان على هذا النحو مجبر لا اختيار له ولا قدرة ، وأول من قال بالجبرية جهم بن صفوان فسمي أتباعه بالجهمية . أما القدرية فقد جاءت حركتهم كرد فعل لحركة الجبرية ، ومذهب القدرية هو أن الإنسان يملك القدرة والإرادة عن تصرفاته ، أما المعتزلة فهي أعظم مدارس الفكر والكلام في الإسلام ، ويرجع أصل هذه التسمية إلى واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة أستاذه الحسن البصري بمسجد البصرة ،

لاختلافه معه في الرأي . وتتلخص آراء المعتزلة في القول بعدم تكفير مرتكب الكبائر واعتباره في منزلة بين المنزلتين ، أي بين المؤمن والكافر . وقالوا بالقدرة أي أن الله لا يخلق أفعال الناس وإنما هم يخلقون أفعالهم ، وقال المعتزلة بسلطان العقل وقدرته على معرفة القبيح من الحسن ، كذلك قال المعتزلة بالتوحيد فنفوا أن تكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل إن الله عالم وقادر ، وحي وسميع وبصير بذاته . وقد اضطهد خلفاء بني أمية المعتزلة ، ولكن بعض الخلفاء ذهبوا مذهبهم .

هـ الشعر الأموي :

اهتم الأمويون بلغة العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم ، فوضعوا لها القواعد ، ووضعوا لشعرهم الأقيسة ، ووضع الخليل بن أحمد قاموساً للغة وأنشأ علم العروض لوزن الشعر ، واتخذ الشعر الأموي اتجاهات جديدة، فظهر شعر الغزل، ومن أشهر شعراء هذا اللون عمر بن أبي ربيعة في الحجاز ، الذي يمثل الغزل غير البريء لبثينة ، وجميل عذرة الذي يمثل الحب البريء ، وظهر الشعر السياسي ، نتيجة للسياسة الحزبية للدولة الأموية ، فوجد شعراء أبلوا بلاء حسناً ، منهم عبيد الله بن قيس الرقيات من الزبيريين ، والكميت بن زيد الأسدي من شعراء الشيعة ، وجرير ، والأخطل كذلك وجد شعراء يمثلون الصراع بين العصبيتين القيسية واليمنية ، ومن شعراء القحطانية دعبل الخزاعي ومن شعراء القيسية الكميت.

و ـ الكيمياء والطب :

وعني بنو أمية بالكيمياء والطب ، وأول من اهتم بهذا العلم وبإخراج كتب القدماء في الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية ، وفي الطب نبغ عدد من النصارى منهم ابن أثال، طبيب معاوية . وابن. أبجر السكندري طبيب عمر بن العزيز.

ـ ٤ ـ

المنشآت المدنية والدينية

كذلك برهن العرب في عصر الدولة الأموية بنشاطهم العمراني على أنهم من الشعوب المتحضرة الكبرى ، فقد احترموا تراث الماضين ، واهتموا بالتعمير السلمي ، وأحاطوا رجال الفن والصناعات في البلاد المفتوحة بالرعاية والتقدير . وكان لاختيار دمشق مركزاً للخلافة الأموية أثره الكبير في تأثرهم ببغض الطرز الفنية التي كانت تسود بلاد الشام ، فكان من الطبيعي أن يتأثروا بأساليبها.

١ ـ المنشآت المدنية :

-حرص الأمويون على الاستمتاع بالحياة الدنيوية ، فاهتموا بإنشاء القصور المنقمة والمزيّنة بالزخارف ، والصور والتماثيل دون أي تحرج .

ويتجلى فيِ بناء القصور الأموية في البادية ميل الأمويين الأصيل إلى الفن ، وانجذابهم نحو البادية حيث التمتع بهدوء الصحراء .

وتبقت من القصور الأموية في البادية بعض آثار أهمها آثار قصر المشتى الذي قيل أن الوليد الثاني أقامه على أنقاض قصر غساني في

شرق الأردن . وإلى هذا الخليفة أيضاً يرجع الفضل أيضاً في بناء قصر خربة المنية الذي يقع إلى الشمال الغربي من بحيرة طبرية ، ويذكر المؤرخون أن هذا الخليفة أيضاً قام ببناء قصر القسطل الذي يبعد نحو عشرين ميلاً جنوبي عمان . ومن القصور التي تنسب إلى هشام بن عبد الملك قصر خربة المفجر ويقع على بعد ثلاثة أميال شمال أريحاً قريباً من البحر الميت ، وإلى نفس الخليفة ينسب قصر الحير الغربي الواقع على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب الغربي من تدمر .

ومن القصور التي تنسب إلى الوليد بن عبد الملك القصر المعروف بقصير عمره ، يقوم في الصحراء على جانب من وادي بطم .

ب ـ المنشآت الدينية :

اهتم الأمويون بتجديد المساجد الأولى التي أسست في عصر الخلافة الراشدة مثل جامع البصرة والكوفة والفسطاط ، وجامع المدينة ، وجامع صنعاء ، كما اهتموا بتأسيس عدد كبير من المساجد الجامعة مثل جامع دمشق والجامع الأقصى وقبة الصخرة وجامع الزيتونة بتونس وجامع عقبة بن نافع في القيروان .

١ ـ تجديد المساجد الأولى :

بدأ المسلمون في تجديد جامع الرسول في المدينة تجديداً شاملاً في زمن الوليد ابن عبد الملك في سنة ٨٨ هـ . كذلك جدد جامع البصرة الذي بني باللبن والطين على أيام معاوية بن أبي سفيان

في سنة ٤٤ هـ . أما جامع الكوفة الذي أقيم في سنة ١٧ هـ فقد جدد في سنة ٥١ هـ (٦٧٠ م) على يدي زياد بن أبيه ، كذلك أضيف إلى جامع صنعاء الكبير ، وزيد جامع عمرو بن العاص الذي أسس في سنة ٢١ هـ .

٢ ـ أمثلة من المساجد الجامعة الجديدة :

وأعظم هذه المساجد جميعاً الجامع الأموي بدمشق ، وكان موضع بنائه كنيسة يوحنا المعمدان ، فاتخذه المسلمون مسجداً ، بينما دخل أبو عبيدة المدينة ترك النصف الثاني من الكنيسة للنصارى ، واكتفوا باتخاذ موضع القبلة في الجدار القبلي . حاول معاوية بن أبي سفيان أن يقنع نصارى دمشق بالتنازل عن نصيبهم ، لضمه إلى المسجد، فأبوا وعادوا عبد الملك بن مروان مطالبتهم بهذا الشطر لإدخاله في الجامع وبذل لهم مالاً فأبوا أن يسملوه إليه . فلما تولى الوليد الخلافة ، بادر بمفاوضة أصحاب الكنيسة ، فلما أبوا انتزعه منهم قسراً ، وعلى الرغم من أن هذا الجامع تعرض للحريق عدة مرات ، وأضيف فإنه ما يزال يحتفظ حتى اليوم بتخطيطه الاسلامي الأموي . وتعتبر قبة الصخرة ببيت المقدس من أروع العمائر الدينية الأموية ، أنشأها الخليفة عبد الملك بن مروان في سنة ٧٢ هـ في وسط الحرم الشريف .

أما الجامع الأقصى فهو ثالث الجوامع الأموية الهامة في الشام ، أنشأ الخليفة عمر بن الخطاب في موضعه مصلى من الخشب في سنة ١٦ هـ ، ثم بناهُ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ .

وأقيمت في العصر الأموي مساجد أخرى ، نذكر منها ما يلي :

المسجد الجامع بالقيروان ، وجامع الزيتونة بتونس ، والمسجد الجامع بالاسكندرية المعروف بجامع الألف عمود .

الفصل الثامن
البحرية الإسلامية في العصر الأموي
ـ ١ ـ
نشأة البحرية الإسلامية

يعتبر الانتصار الحاسم الذي أحرزه المسملون على الجيوش البيزنطية في موقعة اليرموك نقطة تحول هامة في حركة الفتوح الإسلامية أدت إلى انهيار قوى الروم .

وأخذت مدن الشام الكبرى في الشمال والجنوب تتساقط سريعاً ، وأدى فتح بلاد الشام إلى فتح مصر ، إذ كانت تربطهما منذ أقدم العصور مصالح سياسية وحربية وتجارية واحدة .

وسجلت الفتوح الشامية والمصرية تحولاً فجائياً في الاستراتيجية الدفاعية للعرب في هذه المرحلة من تاريخهم الإسلامي ، فقد أحسوا بأهمية الدفاع البحري . عمد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب إلى اتباع سياسة بحرية دفاعية لمواجهة خطر استرداد البيزنطيين لسواحل الشام ومصر ، متوسلاً في ذلك يوسائل برية ، كترميم القلاع وشحنها بالمقاتلة والمرابطة .

ويرجع الفضل الأعظم في إنشاء الأسطول العربي الإسلامي إلى معاوية ابن أبي سفيان ، الذي فطن إلى أهمية الأساطيل في الدفاع

عن السواحل ، رأى معاوية الحالة السيئة التي وصلت إليها تحصينات المدن الساحلية ، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له حال هذه السواحل ، ويقترح عليه إنشاء أسطول بحري للغزو في البحر ، فرد عليه عمر ، ولم يأذن له . وامتثل معاوية لما أمره به عمر؛ ، فحصّن الثغور الإسلامية وشحنها بالمقاتلة . كذلك اهتم عمر بن الخطاب بسواحل .

ولما استخلف عثمان بن عفّان في المحرم سنة ٢٤ هـ كتب إليه معاوية يستأذنه في غزوة قبرص .

وعندئذ عزم معاوية على السير في تنفيذ خطته في إعداد أسطول بحري . فاستحضر الأخشاب من غابات الأرز بلبنان ، وأرسلها في السفن إلى دار الصناعة بالاسكندرية التي لم يكن في مصر سواها حتى ذلك الحين . فكتب إلى الخليفة الراشد عثمان في عام ٢٧ هـ يهوّن عليه ركوب البحر إلى قبرص ، فأذن له بغزو الروم بحراً في قبرص على ألا يحمل الناس على الغزو كرهاً ، وأن يصحب معه إمرأته فاخته بنت قرظة . ثم أبحرت الحملة إلى قبرص في ربيع سنة ٢٨ هـ ، وكانت هذه الحملة أول غزو للمسلمين في البحر .

وما كاد معاوية يظفر بالخلافة في سنة ٤١ هـ بإجماع المسلمين حتى عمل على تدعيم الدفاع عن السواحل . واهتم معاوية بإصلاح دار صناعة عكا ، ولم تزل السفن تصنع في الشام بعكا حتى آلت الخلافة إلى المروانية فنقلوها إلى صور .

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com